رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القرار

رواية

داود سليمان العبيدي

دار الأرقم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القرار

رواية

داود سليمان العبيدي

دار الأرقم

ⓒ مكتبة دار الأرقم للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبيدي ، داود سليمان

القرار .- الرياض.

٢٤٠ ص ، ١٤×٢٠ سم

ردمك : ١ - ٢ - ٩٢٤٥ - ٩٩٦٠

١- التوبة (الإسلام) أ - العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٠/٣٨٩٧

رقم الإيداع : ٢٠/٣٨٩٧

ردمك: ١ - ٢ - ٩٢٤٧ - ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

مكتبة دار الأرقم

ص.ب : ١٠٢٧٤ - الرياض : ١١٤٣٣

هاتف: ٢٩٣٣٠٧١ - ٠٥٥٢٩٣٢٢٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١ ـ اللجْـــنَة...

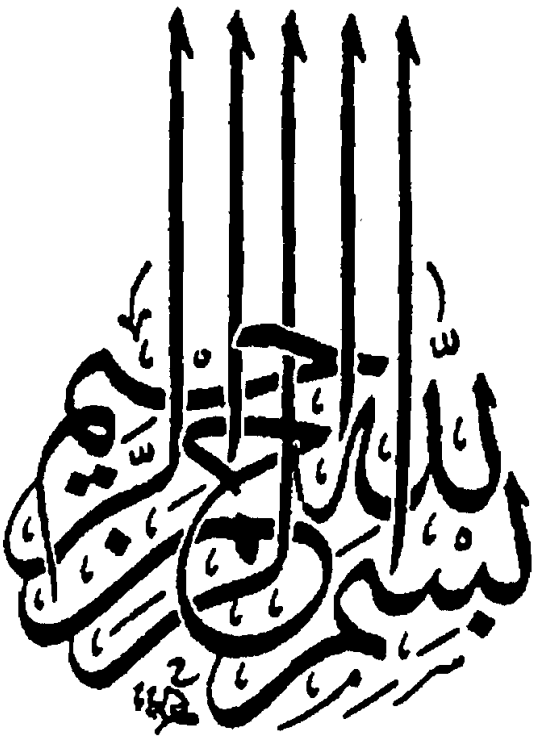
بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

اندفع السيد صبحي حميد شريف يصعد السُلَّم قفزاً وهو يسأل الحارس:

هل اجتمعت اللجنة؟

هل حضر مدير الإدارة؟

كان تايه، الحارس، قد استند إلى الباب الخارجي، وراح يتابع حركة السيد صبحي الرشيقة الشابة دون أن يكلف نفسه عناء الإجابة عن أسئلته التي انقطعت عندما بلغ الطابق الثاني من البناية. كانت إضاءة الطابقين الأول والثاني رديئة.. فلما بلغ الطابق الثالث، رأى الإضاءة جيدة.

وقف السيد صبحي أمام غرفة السيد مدير الإدارة، يسترد أنفاسه، ويسوّي هندامه.. ثم أخرج مشطاً صغيراً أبيض وراح يمشط شعره الأشقر المتموج.. ثم تقدم بعد أن أعاد المشط إلى الجيب الصغير فوق الصدر وطرق الباب.. ودخل قبل أن يسمع الجواب.

ـ السلام عليكم..

ـ وعليكم السلام..

ردَّ اثنان من أعضاء اللجنة السلام، أحدهما لم يتجاوز صوته شفتيه. أما مدير الإدارة، فقد رفع رأسه، ونظر إلى السيد صبحي لحظات، ثم نظر إلى ساعته وقال:

ـ لقد تأخرت.

اندفعت يد السيد صبحي إلى ربطة العنق بارتباك، وقال باعتذار:

ـ لقد تأخرتُ بسبب سيارات المصلحة.. و.. و..

ـ بلا واوات ولا اعتذارات..

الموظف الجيد يحافظ على الموعد مهما كلف الأمر.. ثم خفض

رأسه ينظر إلى الملف الذي أمامه وأضاف:

ـ انتهينا من اختيار الأسماء.. ولم يبق إلا صياغة القرار.

وضرب بكلتا يديه على الملف وهو يدفع كرسيه الدوار إلى الخلف ويصيح:

ـ سبتي.

كان مدير الإدارة يرتدي بدلة بنية اللون، ويضع أمامه علبة سيكاير أجنبية. كان يجلس وراء منضدة رمادية احتلت الجزء الخلفي من الغرف المستطيلة التي طليت جدرانها باللون الأزرق الفاتح. وانتشر الضوء الفضي من مصباحين كهربائيين على شكل أنبوبين طويلين في أعلى الجدارين المتقابلين. الشباك الكبير الوحيد، يقع وراء المدير، وقد سدلت عليه ستائر قرمزية سميكة مطرزة الحواشي بخيوط لامعة من نفس اللون. على يمينه هاتف أزرق اللون إيطالي الصنع، ثم مزهرية صغيرة احتوت عدة أوراد ذابلة.

ـ سبتي.

ـ نعم أستاذ.

دخل سبتي ابن نشمية الغسالة يحمل أقداح الشاي في صينية معدنية ممسوحة لم يبق من لونها شيء. كان يحمل ثلاثة أقداح من الشاي.. لما نظر إلى الحاضرين تمتم متعجباً:

ـ أربعة.. ؟!

ثم عاد قبل أن يقدم أي قدح إلى الحاضرين.. فضحك السيد عبدالفتاح وقال:

ـ هكذا تكون العبقرية.

ونظر الحاج إسماعيل إلى ساعته وقال:

ـ دعوني أصلي المغرب في الغرفة المجاورة.

فأشار المدير بيده:

ـ اشرب الشاي أولاً.

عاد سبتي يحمل أقداح الشاي، ثم وقف متردداً، وأخذ يعد الحاضرين:

ـ ثلاثة.. أربعة..

ثم نظر إلى أقداح الشاي وقال:

ـ إنها أربعة أيضاً.

قدم القدح الأول إلى مدير الإدارة الذاتية، بعد أن مسح جانب الزجاجة السميكة التي تغطي المنضدة بكمه وهو يقول بصوت خفيض:

ـ الأستاذ أولاً.

كان المدير يرتاح لهذه الكلمة، بل ينتشي، بل يشعر بموجة من الغرور تملأ نفسه وتنسيه، ولو لحظات جميع مشاكله!

ثم قدم القدح الثاني إلى سكرتير اللجنة، السيد عبدالفتاح محمد عبدالله. وقدم الثالث إلى الحاج إسماعيل ثم تلفت يمنة ويسرة.. ووقف متحيراً ومتسائلاً بصوت كالمبحوح:

ـ كنتم أربعة؟!

فضحك السيد صبحي وقال:

ـ أنا هنا..

استدار سبتي، وقدم له قدح الشاي دون أن يتفوه.

كان السيد صبحي جميلاً أنيقاً جذاباً، يرتدي بدلة زرقاء تحتها قميص أبيض، ورباط عنق أحمر تنتشر عليه نجوم زرقاء داكنة وأخرى

بيضاء ساطعة. كان يتمتع بروح شفيفة رفيفة فكهة جذابة.

تناول قدح الشاي وسأل سبتي مازحاً:

ـ كيف استطاع حسام أن يهزم فتاح الفال؟

ـ عندما مرَّ فتاح الفال من زقاقنا...

اعتدل سبتي واقفاً، حاملاً الصينية بيده اليسرى. وأراد أن يستمر في سرد الحكاية التي كان يعيدها من بدايتها كلما سأله السيد صبحي عنها!!

ولكن المدير قاطعه قائلاً:

ـ اذهب وقل لتايه يأتِني بعلبة سيكاير.

ـ جمهوري؟

ـ بغداد.. علبة سيكاير بغداد.

أشار عبدالفتاح بيده:

ـ قدح ماء من فضلك.

خرج سبتي متعثراً، لا يدري بأيهما يبدأ.. أبا الذهاب إلى تايه أم بإحضار كأس الماء؟! ولكن أوامر المدير قضت على تردده:

ـ سيكاير بغداد.. لا تنس.

فأسرع إلى المصعد الكهربائي، ناسياً أن يعيد الصينية إلى مكانها!

تململ السيد عبدالفتاح، ثم نهض واقفاً وهو يقول:

ـ لا نستطيع أن نكلف سبتي بحاجتين في آنٍ واحد.

فضحك السيد صبحي وأضاف:

ـ إن الإنسان يحتاج إلى الترويح عن نفسه أحياناً.

ـ دائماً.

هتف المدير، وقد فتح كفيه وهبط بهما على الملف الذي أمامه،

مما جعل الملعقة الصغيرة تقفز قليلاً من صحن الشاي ثم تعود فتحدث رنيناً قضت عليه موجة الضحك التي غمرت المدير والسيد صبحي . . !

قال الحاج إسماعيل وهو يعيد القدح فارغاً إلى الصحن الصغير الذي كان ينتظر على الطاولة :

ـ سأصلي المغرب في الغرفة المجاورة .

. . . . . .

كانت سجادة قديمة بالية تغطي أرض الغرفة، ومدفأة علاء الدين ترسل دائرة من اللهب الأصفر عدا منطقة صغيرة على شكل قوس هزيل من اللهب الأزرق . كان السيد صبحي قد قرب المدفأة وراح يمرر كفه اليسرى فوقها، بينما حمل قدح الشاي بيده اليمنى، وراح يرتشف منه ويتلذذ بطعمه . أما المدير، فقد أخذ يقلب أوراق الملف الذي أمامه، تاركاً قدح الشاي ينتظر والحرارة تتسلل مع البخار المتصاعد منه!

عاد السيد عبدالفتاح وهو يمسح يده بمنديل أبيض طواه جيداً ووضعه في جيبه، وجلس في مكانه تحت التقويم المعلق على الحائط والذي يشير إلى اليوم السابع من شهر ذي الحجة ١٣٧٨ هجرية . . اليوم السابع أيضاً من آذار ١٩٦٨ ميلادية . . !

وقبل أن يشرب الشاي قال متسائلاً :

ـ هل نعيد قراءة الأسماء؟

ثم تناول القدح وراح يشرب بهدوء . . وانتبه المدير إلى قدحه، فمد يده إلى الملعقة، وغمسها في الشاي وراح يديرها . . ثم رفع القدح إلى فمه وأخذ رشفة وقال :

ـ بارد .

ثم سأل:

ـ أين الحاج إسماعيل؟

وقبل أن يُسرع السيد صبحي بالجواب، دخل الحاج إسماعيل وهو ينفض سرواله عند الركبة ويقول:

ـ أكثر من عشرة أسماء كان يجب أن يكونوا ضمن المقبولين. فلما جلس أجابه المدير:

ـ إن العدد محدود.. لا نستطيع أن نتجاوزه.

ـ إن مهمة اللجنة أن تختار الأفضل.. كفايةً وعلماً وذكاءً..

لماذا تشكلت اللجنة وأجري الاختبار؟

لماذا تريد أن تحملنا أمراً ليس لنا فيه رأي ولا اختيار؟

ضحك المدير بوجهه الأسمر، ورفع قدح الشاي يفرغ ما بقي منه في فمه، وقد ظهرت تحت شفته السفلىٰ من الجهة اليمنى مجموعة صغيرة من الحبيبات الداكنة من أثر الحلاقة.. أو من أثر الحساسية. وبصوت خفيض وإشارة من يده التي لا تتوقف عن الحركة كلما أراد أن يتكلم.. كأنه يعلِّم، أو كأنه يذيع سراً قال:

ـ يا أستاذ.. يا أستاذ.. لابد أن يتحلىٰ الإنسان بشيء من المرونة.. توصيات الأصدقاء يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار!!

ـ أصدقاء؟!!

ضحك السيد صبحي عندما لم يستطع أن يفسر مراد الحاج إسماعيل عندما نطق كلمة: أصدقاء؟! كانت مزيجاً من الاتهام والاستفهام والاستنكار والألم والسخرية!!

عاد السيد عبد الفتاح يقول: وكأنه يريد أن ينهي المناقشة:

ـ هل نعيد قراءة الأسماء؟

ـ اقرأ القرار.

وضع المدير السيكارة في فمه، وألقى العلبة الفارغة في سلة المهملات، ثم أشعل السيكارة بعود من الثقاب وراح يستمع إلى السيد عبدالفتاح وهو يقرأ القرار: ـ استناداً إلى الأمر الإداري المرقم ت ل/ ٤٥٧٣ والمؤرخ في ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨. اجتمعت اللجنة المشكلة بموجب الأمر الإداري المذكور أعلاه برئاسة السيد خالد عبدالمجيد صالح مدير الإدارة والذاتية وعضوية كل من السادة إسماعيل أحمد منصور وعبدالفتاح محمد عبدالله وصبحي شريف حميد.

قاطعه السيد صبحي مصححاً:

ـ صبحي حميد شريف.

أخرج السيد عبدالفتاح قلم الحبر، وصحح الاسم ومضىٰ يقرأ:

ـ وصبحي حميد شريف. وبعد الاطلاع على نتائج الاختبار ومقابلة السادة المذكورة أسماؤهم أدناه للتوظيف بالرواتب والعناوين المذكورة إزاء كل منهم اعتباراً من تاريخ مباشرتهم الوظيفة.

ثم تلا أسماء المقبولين..

قال المدير، وهو ينقر بإصبعه على الزجاجة التي تغطي المنضدة:

ـ أرى أن تغير كلمة «للتوظيف» بكلمة «للتعيين».

أيد السيد صبحي اعتراض المدير بهزة من رأسه.. فقام السيد عبدالفتاح بالتصحيح اللازم.. ثم أضاف:

ـ هل نوقع القرار؟

أشار الحاج إسماعيل بيده:

ـ ليس الآن.

ثم التفت إلى المدير :

ـ ربما ينسحب بعض المقبولين، فعلينا أن نرشح عدداً آخر . . احتياطاً .

انتبه المدير إلى الناحية التي أثارها الحاج إسماعيل، فأسرع يخرج رقاع التوصية من جيبه . . فنهض الحاج إسماعيل منفعلاً وهو يقول :

ـ أرجوك . .

ثم وضع يده على الرقاع وهو يضيف :

ـ أرجوك . . اترك لنا حرية الاختيار في هؤلاء .

أح أح المدير وهو يستجيب على كره وقال :

ـ نأخذ الأسماء الخمسة الذين حازوا أعلى الدرجات في الاختبار . . عبدالله إبراهيم، وسعد جاسم، ونزار شريف، ومهدي سلمان، وسالم حبيب .

ـ أنت تريد أن تفرض الأسماء التي تريدها!

عاد الحاج إسماعيل إلى مكانه غاضباً، ورفع السيد عبدالفتاح القدح الفارغ إلى فمه دون أن يعلم، ثم أعاده إلى مكانه وبعد صمت قليل قال :

ـ لنناقش الأسماء الخمسة التي اقترحها المدير .

انتهز المدير هذه الفرصة، فبسط يديه كأنه يريد أن يتسلم شيئاً أو يعطي شيئاً وقال :

ـ نعم . . أنا أقترح وأنتم تناقشون .

قال الحاج إسماعيل محتداً :

ـ أنا أرفض الأسماء الخمسة .

ـ أساتذة الإعراب تلقوها بالقبول!

ضحك السيد صبحي وهو يلقي بهذه النكتة، وضحك المدير

وعبدالفتاح. ولم يجد الحاج إسماعيل ما يدعو إلى الضحك. كان غاضباً وناقماً.. لقد زج في لجنة لا يملك أن يفعل فيها شيئاً.. لذا راح يدمدم ساخطاً.

ـ الأمور الجدية نقابلها بالضحك والسخرية. متناسين أولئك المساكين الذين قدموا طلباتهم..

لعل بعضهم لا يجد قوت يومه..

لعله يعد الدقائق..

يقيس الظل ويتابع الشمس من مشرقها إلى مغربها بانتظار اليوم الذي تعلن فيه النتيجة على أمل أن يجد اسمه مع المقبولين!!

أنتم لا تعلمون..

أو تعلمون وتتغافلون..

أخطر الأمور نأخذها بالسخرية وعدم المبالاة!

قبل تسعة أشهر هزمتنا إسرائيل شر هزيمة.. وبدلاً من أن نستعد بكل قوانا.. بكل ما عندنا.. بكل عزيز.. بكل نفيس.. لاستعادة أرضنا..

لغسل عارنا..

لطرد عدونا..

بدلاً من كل ذلك..

وغير ذلك..

اكتفينا بالجلوس أمام التلفزيون..

والاستماع إلى أم كلثوم وفيروز.. وغير فيروز!!

إنني عندما أقرأ التاريخ، وأرى تلك الأمة العظيمة القوية الجادة..

الأمة التي انشق لها القمر. . وطويت لها الأرض. . وراحت تنشر برّها وخيرها وعلمها وعطرها وعبيرها وتقواها في كل الأرض. .

ثم انظر إلى حالنا اليوم. .

إلى الصفعات القوية التي تنهال علينا من كل مكان. . من كل يد!!

لا أستطيع أن أصدق. . أبداً. . أبداً. . بأننا من أولئك الأبطال الذين لم يصبروا على ظلم ولا ضيم ولا عدو غاشم مهما كان عدده وكانت عدته!!

ساد الغرفة صمت طويل. . كان الدخان المتصاعد من سيكارة المدير يتلوى كالخيط ثم يرتفع وينتشر ثم يختفي. . وكان السيد صبحي يرفع يديه عن المدفأة كلما نالتا من الدفء ثم يمرر كفيه على وجهه الحليق!

انقطع حبل الصمت، عندما دخل سبتي ليجمع الأقداح الفارغة. . فسأله المدير:

ـ هل جئت بعلبة السيكاير؟

رفع سبتي سرواله إلى بطنه، وحركه يميناً وشمالاً ثم قال:

ـ ذهب تايه ليشتري.

قال عبدالفتاح بصوت خفيض:

ـ هل نعيد قراءة القرار؟

ـ بل نعيد صياغته.

قال المدير وهو يعتدل في جلسته ويفتح الملف الذي أمامه بعد أن أطفأ السيكاره وألقاها في سلة المهملات.

قرأ السيد عبدالفتاح السطر الأول من القرار:

ـ استناداً إلى الأمر الإداري المرقم ت ل/ ٤٥٧٣ والمؤرخ في ٢٥/ ٢/ ١٩٦٨ .

أضاف السيد صبحي مقاطعاً ومتمماً:

ـ القاضي بتشكيل لجنة لاختيار واختبار السادة المتقدمين للتعيين .

أشار المدير بيده:

ـ هذه عبارة جميلة . . لاختيار واختبار . . اكتبها .

ـ أأكتب كل الجملة التي قالها؟

ـ نعم . . اكتبها كلها .

امتلأ السيد صبحي زهواً، وشاعت على وجهه ابتسامة أضاءت محياه الصبيح، وأخرج مشطه الأبيض الصغير، وراح يمشط شعره المتموج وهو ينظر بسرور إلى السيد عبدالفتاح الذي كان يكتب العبارة التي قالها .

ـ اجتمعت اللجنة المشكلة بموجب الأمر الإداري المذكور أعلاه برئاسة .

ـ في العبارة تكرار ثقيل .

لم يجد السيد صبحي العبارة المناسبة . . ولم يحاول الحاج إسماعيل أن يدلي برأي حولها . . كان في حالة من الغضب والإنفعال لا تسمح له بأن يشارك أو يدلي برأي حول أمور شكلية لاتغير شيئاً من أساس المشكلة!

رفع السيد عبدالفتاح رأسه، وهو يمسك بقلم الحبر الأجنبي بأصابعه الثلاث وقال:

ـ اجتمعت اللجنة برئاسة السيد مدير الإدارة والذاتية .

ـ نعم . . هذه أفضل . . احذف كلمة: المشكلة بموجب الأمر الإداري

المذكور أعلاه.

شطب عبدالفتاح بقلمه على الكلمة المطلوب حذفها.. وكتب الكلمة الجديدة.

أضاف المدير:

ـ يجب أن يتكون القرار من فقرتين.. الأولى تخص المقبولين والثانية تخص الاحتياط.

هتف السيد صبحي وكأنه عثر على شيء ثمين:

ـ يذكر في آخر القرار.. وعند عدم المراجعة يسقط حقه في التعيين ويحل محله الأمثل فالأمثل..

عقد المدير حاجبيه وبسط كفيه مستفسراً:

ـ الأمثل فالأمثل.. ماذا تعني؟

ارتبك السيد صبحي، وتلعثم قائلاً:

ـ لا أدري.

ضحك السيد عبدالفتاح وقال:

ـ كيف نذكر كلمة لا نعرف معناها؟

ثم أضاف بعد قليل من التفكير:

ـ نضع بدلها.. الأفضل فالأفضل.

نقر المدير بإصبعه على المنضدة وقال:

ـ أظن أنها تؤدي نفس المعنى.

ثم أضاف وهو يشير بيده إلى السيد عبدالفتاح:

ـ اكتب..

وفي حالة تخلف المرشح عن الحضور خلال عشرة أيام من تاريخ

هذا القرار، يسقط حقه في التعيين ويحل غيره محله.

ـ ويحل غيره محله؟!

ـ لا.. ويرشح الاحتياط حسب الأسبقية.

نهض السيد صبحي وهو ينفض سرواله:

ـ الحمد لله.. انتهت مهمتنا.

أشار السيد عبدالفتاح قائلاً بلطف:

ـ اجلس.

ـ اختار المدير خمسة أسماء.. اذكرهم في نهاية الأسماء العشرين واكتب أمام كل منهم.. احتياط.

هز المدير رأسه مؤيداً وقال:

ـ اذكرهم بعد الفقرة الثانية.

ـ سبتي..

أقبل سبتي مرعوباً:

ـ نعم أستاذ.

ـ أين علبة السكاير؟

تلعثم سبتي وهو يجيب بارتباك:

ـ أستاذ.. أنا أرسلت تايه.. سيأتي حالاً.

ـ اذهب..

انتظر..

أشار المدير إلى السيد عبدالفتاح:

ـ لنوقع القرار قبل أن نخرج.

مرَّ القرار على أعضاء اللجنة يوقعون عليه، ولكن الحاج إسماعيل

تردد كثيراً . . قال المدير :

ـ إنك إذا لم توقع عليه فمعنى ذلك أنك تتهم اللجنة .

ـ إنني أتهم نفسي إذا وقعت عليه!

ولكن ، وبعد إلحاح من الجميع . . وقع القرار .

تنفس المدير بارتياح ، وجمع الأوراق ووضع القرار في الملف ونهض واقفاً . . فبادر سبتي يقول :

ـ أنا أحمل الحقيبة .

فأشار صبحي بيده :

ـ أطفئ المدفأة أولاً . .

نفخة واحدة . . لا ترفعها . . افعل هكذا . . نفخة واحدة .

حاول سبتي أن يطفئها بعدة نفخات ، فلم يستطع ، فدفعه صبحي جانباً وهو يقول :

ـ ألم تتعلم من السيد إبراهيم . . هكذا . . . انظر . . ونفخها بهدوء فانطفأت .

خرالجميع من الغرفة في طريقهم إلى السلم . . وأطفأ سبتي المصابيح الكهربائية ، وركض وراءهم وهو يتأبط حقيبة المدير ويصيح :

ـ المصعد . . ننزل بالمصعد .

كان الرجال مترددين . . أيستعملون المصعد أم ينزلون على السلم؟ ولكن سبتي قضى على ترددهم :

ـ المصعد . .

استعملته قبل قليل . .

إنه يشتغل مثل الساعة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٢ ـ فتّاح الفَال...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كانت أرضية المصعد مغطاة بقطعة سميكة من المطاط الأحمر. . وجدرانه من الألمنيوم الفضي اللامع. ومن السقف تطل مروحة تعمل على تلطيف الجو وتبديل الهواء الساخن صيفاً. . ومصباح فضي يختفي وراء زجاج سميك فوق الباب ينشر ضياءً خفيفاً مريحاً!

ضغط سبتي على رقم سبعة وهو يقول:

ـ سنجد تايه بانتظارنا.

انسد الباب، وتحرك المصعد بهدوء صاعداً إلى الطابق السابع!

فصاح المدير منفعلاً:

ـ ماذا فعلت؟

ـ إنه ينزل.

ـ اضغط على مفتاح الوقوف.

ولكن سبتي وضع إصبعه على مفتاح الجرس. .

ثم انطفأ الضوء!!

صاح الجميع:

ـ ماذا فعلت؟

وأضاف المدير:

ـ أيها الغبي.

ثم عاد الضوء. .

وبدأ الجرس يرن. . والمصعد يتحرك إلى الأعلى. فدفعه المدير عن مكانه، ووضع إصبعه على مفتاح الوقوف.

وقف المصعد قريباً من الطابق السادس. ولكن التيار الكهربائي

انقطع مرة ثانية، وترك الجميع في ظلام دامس فتأفف المدير:

ـ أُف.. هذا القرد.. هذا القرد..

ثم عاد التيار بعد لحظات.

وضع المدير إصبعه على مفتاح الطابق الأرضي وهو يقول:

ـ هذه مشكلة المصعد.. كنت أفضل النزول على السلم.

تحرك المصعد نازلاً.. حتى وصل قريباً من الطابق الأول أو اجتازه بقليل.. ثم انقطع التيار مرة ثالثة!! ووقف المصعد في مكانه!

ساد الصمت لحظات على أمل أن يعود التيار كما عاد في المرتين السابقتين.. ولكن الحاج إسماعيل قال:

ـ أظن أنني سمعت صوت انفجار.

أيد السيد صبحي:

ـ إنه انفجار إطار إحدى السيارات.

ـ أنا أيضاً سمعت.

كان ذلك صوت السيد عبدالفتاح، الذي أضاف أيضاً:

ـ إطارات السيارات لا تنفجر في الشتاء.

وبعد فترة صمت عاد يقول:

ـ أظن أن التيار الكهربائي قد انقطع عن الشارع كله!

راحت يد المدير تعبث بعدد من النقود المعدنية في جيبه، فيبدد رنينها شيئاً من السكون الذي خيم على الحاضرين.

قال سبتي بصوت خائف:

ـ اسمع أصوات أقدام تصعد السلم.

فصاح المدير:

ـ تايه .

وتبعه سبتي يبدد الخوف الذي تملكه :

ـ تايه . . تايه . . تايه . .

وكان صوته عالياً صارخاً مزعجاً، اضطر الحاج إسماعيل وصبحي وعبدالفتاح إلى وضع أصابعهم في آذانهم ! !

ثم عاد الصمت . .

وأنصت الجميع . . لعلهم يستطيعون أن يسمعوا خلال السكون الشامل صوتاً . . حركة . . أي شيء يدل على وجود إنسان خارج المصعد ! . .

قال المدير :

ـ نحن نتخيل . . إنني لم أسمع شيئاً .

أيد سبتي :

ـ ولا أنا .

صرخ المدير غاضباً :

ـ أنت تسكت . . أنت تسكت فقط .

التصق صبحي بالجدار، وراح يحملق في الظلام لعله يستطيع أن يرى شيئاً . رفع يده وقربها من عينه فلم يرها ! ! لقد غرق الجميع في ظلام دامس .

ـ تأفف المدير وقال متذمراً :

ـ أنا أعرف مشاكل المصعد . . قلت لكم ننزل بالسلم . . ولكن هذا القرد .

ـ دعني أضغط على الجرس .

ـ لا أريد أن أسمع صوتك.

همس الحاج إسماعيل يخاطب عبدالفتاح الذي كان يقف إلى جانبه:

ـ أرجو أن تذكرني عندما نخرج.. أريد أن أشتري دواءً من الصيدلية.

قال صبحي:

ـ أنا أيضاً أريد أن أشتري كمية من البرتقال.

لم يستطع أحد أن يرى الابتسامة العريضة التي ارتسمت على شفتي السيد عبدالفتاح وهو يقول:

ـ عدت في الأسبوع الماضي في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، وكنت متعباً مرهقاً.. وكان أحد باعة البرتقال ينادي بأعلى صوته.. يبيع البرتقالة الواحدة بخمسة عشر فلساً. وكان في جيبي ثلاثة دراهم.. فأردت أن أشتري البرتقالة الواحدة بسعر أقل.. فقلت أساومه:

ـ ثلاثة بدرهم.

فنظر إليَّ كالمستغرب.. ثم قال:

ـ خذ.

اشتريت تسع برتقالات بثلاثة دراهم.. وذهبت إلى البيت مسروراً.. فلما سألتني أمي قلت:

ـ كان يبيع البرتقالة بخمسة عشر فلساً.. ولكني استطعت أن أشتري كل ثلاث برتقالات بدرهم!!

رأيت أمي تنظر إليَّ وكأني أخطأت التعبير!!

انفجر السيد صبحي ضاحكاً، وتبعه الحاج إسماعيل أما المدير فقد كانت همومه تمنعه من الإصغاء أو إدراك موضع النكتة في قصة السيد

عبدالفتاح. أما سبتي، فلم يفهم النكتة. بل تعجب.. لماذا يضحك هؤلاء؟! ثم تململ وسأل:

ـ كيف أستطيع أن أراكم. إن نظري ضعيف.

شعر المدير كأن جدران المصعد تضيق.. بل تكاد تطبق عليه. وكما يشعر ركاب الطابق الثاني في سيارة مصلحة نقل الركاب في يوم شديد الحر شديد الزحام، وقد أغلقت النوافذ، والمحرك (يعتعت) والسائق في حديث خاص مع بائع التذاكر ولا يلتفت إلى الحالة التي يمر بها الركاب.. وكأن الأمر لا يعنيه. كذلك شعر المدير في مكانه هذا بالضيق، وكأن الهواء النقي قد نفد، ولم يبق إلا الهواء الكريه الملوث بأنفاس..

تثاءب سبتي بصوت مرتفع، ثم سأل وقد تطاير رذاذ من فمه على وجه المدير:

ـ متى يتحرك المصعد؟

انفجر المدير ثائراً وقد حاول أن يركله بقدمه:

ـ عندما نتخلص منك ومن جهلك وشكلك وحماقتك!

ثم أضاف متذمراً ساخطاً:

ـ لماذا عقدنا الاجتماع هذا اليوم؟

أما كان الأفضل والأجدر أن نعقده بعد العيد؟!

ـ أنت طلبت عقده هذا اليوم!

أجابه السيد عبدالفتاح وهو يرفع يده محاولاً النظر إلى ساعته.

مضت فترة صمت ليست طويلة، قطعها الحاج إسماعيل قائلاً:

ـ أسمع صوت سيارة إسعاف.

تريث السيد عبدالفتاح ثم قال:

ـ إنها سيارة إطفاء.

ثم أضاف بعد قليل:

ـ لقد شب حريق في الشارع.

أحْ أحَ المدير وهو يصفي حنجرته وقال:

ـ أخشى أن يكون قد شب في المؤسسة!

ثم دفَّ سبتي الذي كان يقف قريباً منه بأصبعه:

ـ هل أطفأت المدفأة؟

ـ نعم أستاذ.

قال صبحي:

ـ أنا أطفأتها قبل أن أخرج من الغرفة.. أطفأتها على الطريقة الإبراهيمية.

هتف سبتي محتجاً:

ـ أنا أطفأتها.

سأل السيد عبدالفتاح:

ـ وكيف تكون الطريقة الإبراهيمية؟

مضى السيد صبحي يشرح:

ـ كان السيد إبراهيم حفظه الله.. يخرج المدفأة عند يشتد البرد، ينظفها ويملأها نفطاً، ثم يضعها في مكان واحد لا تتحرك منه أبداً إلى أن ينتهي الشتاء لا ينقص نفطها ولا تبدل فتيلتها.. لا يشعلها إلا هو. فإذا أراد إطفاءها.. انحنى عليها بحنان، وبنفخة واحدة لا غير.. هكذا..

ونفخ السيد صبحي مقلداً طريقة السيد إبراهيم في إطفاء المدفأة . .
ثم مضى شارحاً ومبيناً فوائد هذه الطريقة :
ـ وبذلك يستطيع السيد إبراهيم حفظه الله أن يحفظ المدفأة جديدة، نظيفة، صالحة إلى الأبد!! دون تبديل أو تغيير في أي جزء من أجزائها . . حتى الفتيلة تبقى كما هي . .
فإذا انتهى البرد . . قام بتنظيفها أيضاً بكل لطف ورفق وحنان . . وملئها بالنفط ثم نقلها إلى مكان واحد أمين لا تصل إليه يد ولا رجل!! وذلك بعد أن يغطيها غطاءً جيداً . حفظه الله .
صاح عبدالفتاح :
ـ آمين .
سأل المدير :
ـ متى يعود الحجاج من مكة؟
أجاب الحاج إسماعيل :
ـ بعد العيد مباشرة .
ـ سأل السيد صبحي :
ـ إذا صار الحج في رمضان . . فماذا يفعل الناس، يصومون أم يحجون؟
لم يستطع أحد أن يتبين ملامح السيد صبحي وهو يطرح السؤال . . ولم يستطع أحد أن يعرف أكان جاداً أم هازلاً! ولكن سبتي أجاب بسرعة!
ـ يصومون . .
وقال السيد عبدالفتاح . .
ـ بل يصومون ويحجون . . كلها عبادة . . وطاعة!
ولاذ المدير بالصمت . . ثم توجه بالسؤال إلى الحاج إسماعيل :

ـ ماذا يقول الحاج؟

ـ إذا حدث ما تقولون فلا أحج ولا أصوم.

هتف الجميع:

ـ لماذا؟!

ـ لأن شهر الحج وشهر الصيام من أشهر السنة الهجرية.. ماذا دهاكم؟ هل يمكن أن يأتي شهر أيلول في شهر حزيران؟!

لاذ الجميع بالصمت.. كيف فاتهم هذا؟ ولكن سبتي لم يفهم فصاح من مكانه:

ـ ولكن شهر الصيام يأتي في الصيف أحياناً.

قال الحاج إسماعيل:

ـ سمعت سيارة الإطفاء تبتعد.

قال عبدالفتاح:

ـ إنها سيارة إسعاف هذه المرة.

قال المدير وكأنه يحدث نفسه:

ـ لماذا لم يعد تايه لحد الآن؟

ثم أضاف وهو يتحسس ساعة يده:

ـ كم الساعة؟

ـ من يستطيع أن يرى عقارب الساعة في هذا الظلام؟!

كان الحاج إسماعيل هو المتكلم.. أما السيد صبحي فقد قال:

ـ أنا نسيت ساعتي في البيت.

رفع السيد عبدالفتاح يده اليسرى، وحملق في ساعته ثم تمتم قائلاً:

ـ أرقام ساعتي ليست فسفورية.. لكن.. أظن أنها لم تبلغ التاسعة بعد.

ـ يجب أن أكون في التاسعة هناك.

ـ أين؟

ـ هناك.

كتم السيد صبحي ضحكة ذات مغزى وقال:

ـ هناك يا أخي.. لا تتدخل في شؤون المديرين.

ـ هناك؟

ـ نعم.

فتبسم عبدالفتاح:

ـ فهمت.

كان الظلام يخفي ما ارتسم على الوجوه من قلق وانفعال ورعب، وقد حاول المدير أن يتذرع بالصبر وضبط النفس.. وأخذ القلق يدب في النفوس ويعمل عمله.

قال الحاج إسماعيل:

ـ إن قوماً قبلنا وقعوا في مثل المأزق الذي وقعنا فيه..

همس صبحي:

ـ إذا نفد الأوكسجين فماذا نفعل؟

كانت الفكرة جديدة، لم تخطر في بال الباقين..

تنحنح المدير وقال:

ـ مساحة المصعد كبيرة.. وكمية الهواء تكفي لمدة طويلة.

أيد السيد عبدالفتاح ثم أضاف:

ـ سيعود الكهرباء بعد قليل.

عاد السيد صبحي يقول بقلق:

ـ ولكننا خمسة!!

ثم رفع يده وأرخى رباط العنق:

ـ إنني أشعر بالاختناق.. أشعر بضيق في الصدر وصعوبة في التنفس.

لم يدر سبتي ما الأوكسجين، ولماذا يشعر السيد صبحي بالاختناق.. إنه يريد أن يعود التيار الكهربائي ويضاء المصعد، ولا يمهمه بعد ذلك إذا تحرك المصعد أو لم يتحرك!!

قال المدير:

ـ المصعد يكفي لعشرة أشخاص.

أضاف السيد عبدالفتاح موضحاً:

ـ عشرة أشخاص لفترة قصيرة.

رفع المدير رأسه إلى الأعلى وقال:

ـ توجد في سقف المصعد مروحة تعمل على تبديل الهواء.

أيد الحاج إسماعيل رأي المدير:

ـ إنها تعمل على تحريك الهواء وتبديله خلال فتحة فوقها.

ارتاح السيد صبحي قليلاً، وأراد سبتي أن يسأل ما الأوكسجين.. ولكن الكهرباء عادت فجأة.. فصاح سبتي فرحاً كما يصيح الأطفال.. وأراد أن يصفق لكن حقيبة المدير سقطت على الأرض، فانحنى عليها.. ثم انقطع التيار قبل أن تتم الفرحة!!

راحت أصابع المدير تعبث بالمفاتيح بصورة عشوائية. ثم أخذ يضغط بانتظام ويطيل المدة.. لقد حدث مرة.. قبل سنة، أن وقف المصعد، وكان معه ـ في المصعد ـ أحد المراجعين، وموظفة بدينة بشعر أحمر ووجه منتفخ يشبه وجوه الدمى التي تعرضها محلات

أورزدي باك. وموظفة أخرى صغيرة نحيفة نحيلة كأنها خرجت من معصارة فتركتها بلا لحم ولا عظم!! فراح المراجع يرتعد فرقاً، ويصيح:

ـ عفوك يا رب.. عفوك يا رب.

وبكت الموظفة البدينة.. وأغمي على الموظفة الصغيرة!! وقد اضطر العامل المكلف بإصلاح المصعد إلى كسر الباب. ونقلت الصغيرة إلى المستشفى.. وانطلق المراجع هارباً وقد نسي القضية التي جاء من أجلها! أما الموظفة البدينة، فقد جلست في قسمها تبكي وتروي للموظفين والموظفات الذين أحاطوا بها ما أصابها!!

عاد التيار مرةً ثانية..

فتنفس السيد صبحي ملء رئتيه..

ولم يطلق سبتي صيحة أخرى..

كان الضياء قوياً ساطعاً أشد مما كان عليه. فهمس الحاج إسماعيل مع نفسه:

ـ الحمد لله.

وانفرجت أسارير سبتي وقال:

ـ انتهت المشكلة.

وضغط المدير على مفتاح الطابق الأرضي وهو يقول:

ـ لقد تأخرنا.

ولكن المصعد لم يتحرك!!

وكان السيد صبحي ينظر إلى إصبع المدير ويقول:

ـ لا تضغط بقوة.. لمسة خفيفة.

ثم تقدم وهو يضيف:

ـ اسمح لي من فضلك.. دعني أجرب.

وتريث المدير قليلاً.. ثم انسحب إلى الناحية الثانية، وترك السيد صبحي يجرب المفاتيح واحداً بعد واحد حتى وصل إلى مفتاح الجرس، فضغط عليه وراح يرن: ثم التفت دون أن يرفع يده، فسأله المدير متهكماً:

ـ هل تحرك المصعد؟

ـ لعل تايه يسمع الجرس فيعلم أننا هنا.

فأيد الحاج إسماعيل:

ـ فكرة جيدة.

أشارع السيد صبحي إلى رأسه مسروراً وقال:

ـ هنا مصنع الأفكار.

قال السيد عبدالفتاح:

ـ إنها الساعة التاسعة.

نظر المدير والحاج إسماعيل إلى ساعتيهما.. وتميز المدير غيظاً وهو ينظر إلى سبتي:

ـ ماذا صنعت؟

ـ لا شيء.. سيتحرك المصعد.

ـ ثلاثة أيام قطع راتب.

ـ أنا أقف بعيداً عن المفاتيح.

ـ خمسة أيام قطع راتب.. وإذا فهتَ بكلمة..!

ـ إلى أين ذهب الحارس؟

أراد الحاج إسماعيل أن يغير مجرى الحديث:

ـ أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

رفع السيد صبحي يده عن مفتاح الجرس وقال بيأس:

ـ لعله ذهب إلى بيته!

ـ إلى بيته؟

ـ لعله صعد إلى الغرفة فلم يجدنا فيها.. فنزل وأغلق الباب الخارجي وذهب إلى بيته.

هتف عبدالفتاح:

ـ إنه حارس.

تمتم المدير بكثير من الغيظ والغضب:

ـ إنني أتوقع كل شيء من هؤلاء.

ـ لكنه سيحاول استعمال المصعد عندما يعود حاملاً علبة السيكاير.

ـ لقد ذهب والتيار مقطوع!!

احتضن سبتي الحقيبة السوداء جيداً وقال:

ـ إنه لا يستعمل المصعد.

أعاد السيد صبحي إصلاح ربطة العنق التي كان قد أرخاها.

وقال:

ـ سنسمع صوت أقدامه عندما يصعد السلم، فنناديه، أو ندق الجرس فيعلم أننا هنا.

هز الحاج إسماعيل رأسه وقال:

ـ ولكنه لا يستطيع أن يصلح المصعد.. والكهربائي في بيته. فظهر الفزع على وجه السيد صبحي وسأل هو والسيد عبدالفتاح مرة واحدة:

ـ هل يعلم أين يقيم مهدي الكهربائي؟

هل يعلم أحد منكم؟

ثم دارت عيونهما في الوجوه التي لم تفصح عن إجابة واضحة . .

فهتف السيد صبحي بجزع :

ـ هل كتب علينا أن نموت هنا؟

خيم صمت كئيب حزين على الجميع ، وراحت العينان المتسائلتان تنتقل من واحد لآخر فلم تجد إجابة مرضية! وبعد فترة تنهد الحاج إسماعيل :

ـ لقد وقع ثلاثة رجال قبلنا في مثل المأزق الذي وقعنا فيه . . اضطروا إلى اللجوء إلى غار فسقطت صخرة من الجبل وسدت الغار فلم يستطيعوا الخروج .

ـ إنني أسمع موسيقى . . أغنية .

ضغط صبحي على الجرس

ـ لعل أحد المارة يسمع الجرس فيخف لإنقاذنا .

ـ وإذا كان الباب الخارجي مقفلاً؟!

ـ والحارس؟

ـ مات!

نظر السيد صبحي في وجه سبتي :

ـ كيف علمت؟

ـ أظن . . أظن . .

ـ ماذا تظن؟

ـ لِـ لِـ لِـ لِـ . . لِم لمْ يعد إذن؟

تبسم السيد عبدالفتاح وقال:

ـ إذا لم يصب بحادث.. إذا لم يترك واجبه ويذهب إلى بيته.. فلا شك في أنه جالس في مقهى علوان بزون.. يشرب الشاي.. ويتحدث مع أحد الجالسين.. ونحن ننتظر..

وغيرنا ينتظر!!

تمتم المدير بصوت خفيض:

ـ أنا ينتظرني عدد من الأصدقاء في.. في شارع أبي نواس كان يجب أن أكون هناك، في التاسعة.

أغمض عبدالفتاح عينه، ورفع رأسه، كأنه يريد أن يحلق إلى فوق.. فوق.. وراح يتحدث بهمس:

ـ أنا تنتظرني بلادي.. أرضي..

بيت صغير..

وشجرة رمان.

وعين ماء.

ومحمد ماضي القاضي..

ثم تنهد.. وسكت.. كأنه يخشىٰ أن ينفجر..

إنه لا يريد أن يسترسل في قراءة كتابه الحزين.. كتاب الدموع والآلام!

سأل السيد صبحي، وهو يضع يده على كتف سبتي:

ـ وأنت.. هل ينتظرك أحد؟

ـ أنا.. لا.. نعم.. تنتظرني أم جمعة.

ثم تثاءب فاتحاً فمه الكبير، محدثاً صوتاً مزعجاً، ثم رفع يده

ودعك عينه اليمنى:

ـ لو كنت في البيت، لكنت في سابع نومة.

ـ متى تبدأ النومة الأولى؟

نظر سبتي إلى السيد صبحي طويلاً ثم أجاب:

ـ أنا أنام بعد العشاء.

سأله الحاج إسماعيل؟

ـ بعد صلاة العشاء؟

تثاءب سبتي مرة ثانية:

ـ أنا أنام بعد أن أتناول طعام العشاء.

ـ هل تصلي؟

ـ لا.. نعم.. صليت مرة واحدة.. في العيد.. في جامع السيد محمد صالح الجرجيس.

ثم رفع يده، وراح يحك رأسه كأنه يريد أن يتذكر شيئاً ثم أضاف:

ـ حسام ابن الحاج مولود يصلي.

إنه شاب مقفف!!

تلفظ كلمة (مقفف) بسرعة، وتطلع في الوجوه ليرى إن كان قد تلفظ الكلمة بصورة صحيحة.

سأله عبدالفتاح:

ـ مقفف؟

فاستدرك بسرعة:

ـ مقثف!

وبلع ريقه، ونظر بشيء كثير من التردد والارتباك.. فضربه السيد

صبحي بيده على كتفه وانفجر ضاحكاً:

ـ إنه يريد أن يقول: مثقف.

وسرت موجة الضحك إلى الجميع، وبقي سبتي واقفاً صامتاً مستغرباً ومتعجباً.. فلما خفت الموجة عاد فقال:

ـ استطاع أن يهزم فتاح الفال.

ـ من؟

ـ حسام.

هتف السيدان صبحي وعبدالفتاح بصوت واحد:

ـ المقفف؟

فرد عليهما مصححاً:

ـ المقثف.

انفجر الجميع ضاحكين مرةً أخرى.. وبقي سبتي ينظر إليهم متعجباً ومرتبكاً..

لماذا يضحكون؟

إنه لا يعرف سبباً واحداً يدعوهم إلى الضحك!!

كان السيد صبحي أكثرهم استغراباً في الضحك، وقد وضع يده على بطنه، وكلما نظر إلى سبتي الذي وقف عابساً ارتفعت موجة الضحك لديه. فلما هدأ.. سأل المدير:

ـ كيف استطاع حسام، أن يهزم فتاح الفال؟

حوّل سبتي نظرة إلى المدير، وبرطم.. كأنه يريد أن يبكي، كان في بياض عينيه صفرة مريضة، وكان يتمتع بحاجبين كثيفين ووجه مهمل لا حليق ولا طليق. ويرتدي قميصاً أعفر. يعلوه درع رمادي يحميه من

البرد، وبدلة سوداء غبراء لم تنل حظاً من النظافة منذ تعارفا إلى هذه الساعة!

ـ كيف استطاع حسام أن يهزم فتاح الفال؟

كان الجميع قد سمعوا القصة أكثر من عشرين مرة.. إلا المدير.. ولكن سبتي حول نظره إلى السيد صبحي الذي أدار وجهه إلى الجدار وراح يضحك بصمت محاولاً السيطرة على نفسه دون جدوى!

وأراد الحاج إسماعيل أن يحسم الموضوع، فراح يروي القصة كما سمعها:

ـ في زقاق ضيق مرتفع، تنهض جدران البيوت القديمة على جانبيه بشكل رصيص، وتطل قلل الماء البارد من شبابيك الغرف المفتوحة وشناشيلها الخشب.. وفي عصر يوم من أيام الصيف.. مرَّ فتاح الفال.. رجل طويل نحيل أبيض، بعينين ذابلتين وأنف طويل مستقيم متواضع، وشارب خفيف، ولحية قصيرة بيضاء مدببة من الأسفل. يرتدي ثوباً طويلاً أملح، ويضع على كتفه عباءة خفيفة شفيفة بلا لون. وعلى رأسه كوفية قديمة احتضنتها عصابة من نفس اللون تشبه العمامة!!

وبصوت عميق تتخلله نبرة كأنها رعشة لذيذة، تتجاوب معها الجدران:

ـ فوال.. فتاح فال..

هرع إليه عدد من النسوة.. صالحة ونشمية وأم ستار وأم رفيق ونوفة وملكية وأم عباس ورسمية الخياطة وفاطمة العانية وأم عساف الدورية.

وقف فتاح الفال وحوله النسوة، وفتح دفتراً صغيراً بحجم الكف يضم قلماً أسود، رفع القلم بيده إلى فمه وهو يقول:

ـ واحدة واحدة..

وفي لمح البصر..

وكأن الأرض قد انشقت وخرج منها صبي صغير ذكي أهيف وقال متحدياً:

ـ هل تعلم الغيب؟

لم يلتفت إليه فتاح الفال.. بل قال وهو يبلل القلم بفمه:

ـ اذهب بابا.. اذهب.

ولكن حساماً ابن الحاج مولود رفع يده وقد ضم قبضته وسأله:

ـ إذا كنت تعلم الغيب فأخبرني..

ماذا في يدي؟!!

لم يمر فتاح الفال طوال عمره الذي قضاه في هذه المهنة بمثل هذا الامتحان!! وأرادت نوفة أن تقف إلى جانب الرجل:

ـ اذهب حسام.. عيب!!

ولكنه لم يتزحزح من مكانه..

بقيت قبضته تتحدى.. بإصرار:

ـ إذا كنت تعلم الغيب فأخبرني..

ماذا في يدي؟

أخرج فتاح الفال منديله الوسخ.. وراح يمسح العرق الذي تصبب على جبينه.. وحاول أن يجد طريقة.. أية طريقة يستطيع بها أن يدفع بها الصبي العنيد..

ـ اذهب بابا . . العب مع الأطفال . .

ولكن اليد الصغيرة الكبيرة، الفتية القوية، ظلت تتحدى :

ـ إذا كنت تعلم الغيب . . فأخبرني . .

ماذا في يدي؟

وانحاز النسوة إلى جانب الصبي، ورحن ينظرن إلى الرجل بانتظار الجواب . .

هل ينجح في الامتحان؟!

وبلع الرجل ريقه . .

وتمنى أن يكون جوابه صحيحاً :

ـ تراب . . إنه تراب .

فضحك حسام ضحكة ساخرة صاخبة قاتلة . . وفتح يده فنسف بها كل ما لدى الرجل من أكاذيب ودجل وشعوذة :

ـ انظر . . إنها ورقة .

هتف المدير متحمساً

ـ بطل .

قال السيد عبدالفتاح :

ـ أنت وصفت فتاح الفال . . وكأنك تنظر إليه!

فتبسم الحاج إسماعيل :

كنت أراه . . أحياناً .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣ ـ صَلاَة العِشَاء...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

إن الهواء بدأ يتغير.

ـ افتحوا المروحة.

ضغط السيد صبحي على مفتاح المروحة، فتحركت في سقف المصعد ولها هفيف خفيف.. تنهد الحاج إسماعيل بعد أن ملأ رئتيه من الهواء البارد وقال:

ـ لا أظن أن أحداً سيخف لإنقاذنا..

لم يرد أحد من الحاضرين أن يجيب! وبماذا يجيب؟ لقد كان الأمر محيراً..

أضاف الحاج إسماعيل بعد قليل:

ـ إن إرادة عليا قد اضطرتنا إلى هذا المكان لسبب نجهله، وإذا لم نلجأ إلى الله، ونسأله أن يفرج عنا، فسنبقى!!

ـ إلى متى؟

ـ لا أدري.

ـ كيف.. كيف نلجأ إلى الله؟

سأل السيد صبحي بصوت يشبه الهمس، ولكن بلهفة وتطلع..

قال الحاج إسماعيل:

ـ نصنع كما صنع أصحاب الغار..

نسأل الله بصالح أعمالنا..

أحْ أحَ المدير وتنحنح.. ثم قال:

ـ أنا والحمد لله لم أعمل سوءً قط.. قلبي أبيض.. ونفسي في صفاء المرآة.. وأحب الخير لكل الناس.

لم يلتفت الحاج إسماعيل إلى جواب المدير.. ولكنه راح يوضح:

ـ في حياة كل منا عمل صالح..

عمل نقي صحيح مرفوع إلى الله تعالى.. لا تشوبه شائبة من رياء أو نفاق أو مَنٍّ أو محمدة!!

ونسأل الله تعالى به..

فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه وموافقاً لشرعه.

شيء من الصمت واليأس خيِّم عليهم، وراحت يد المدير تعبث في جيبه فتوسوس قطع النقود المعدنية الصغيرة. وأصابع السيد صبحي تنقل الخاتم الذهب من اليد اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى. وعدا ذلك لا يسمع إلا هفيف المروحة.. والمصباح المخفي يرسل ضياءً مريحاً.

نظر السيد عبدالفتاح إلى ساعته وقال بهدوء، كأنه يخشىٰ أن يبدد ذلك السكون:

ـ إنها العاشرة والنصف.

احتضن سبتي حقيبة المدير، وجلس في الزاوية اليسرى من ناحية الباب وقال وهو يغمض عينيه:

ـ كنت أتمنى أن أنام ليلة واحدة في المصعد.. أيقظوني في السابعة.

انفجر المدير غاضباً.. ودفره برجله وصرخ به:

ـ أنت أيها القرد.. لا تفهم ولا تعي ولا تتعلم.

إننا سنبقى هنا..

سنموت هنا . .

سنموت كلنا بسببك . . بسبب جهلك وغبائك وسوء تصرفك!!

وفقد المدير صوابه، وراح يضغط على جميع المفاتيح بقوة وعصبية ويضرب برجله على أرض المصعد!!

أدرك سبتي حقيقة الموقف، فترك الحقيبة تسقط من يده، ونهض واقفاً وقد ضم كفيه وراح يضرب بقبضتيه على باب المصعد وهو يصرخ بجنون:

ـ تايه . . تايه . . تايه . .

وضع الحاج إسماعيل يده على كتف سبتي وقال منبهاً:

ـ تنح قليلاً . . أريد أن أصلي العشاء .

ولكن سبتي لم يلتفت إليه، ولم ينقطع عن الضرب على باب المصعد والصياح . . ثم أخذ يسب ويلعن ويستعمل أقذع أنواع السب والشتم وهو يضرب الباب بيده ويركله برجله!!

شعر الجميع بإرهاق، وتوتر أعصاب . . واحتضن السيد صبحي رأسه بيديه وراح يضغط بلطف على جانبي رأسه . أما عبدالفتاح، فقد أخذ يحرك ساعة يده ويديرها حول معصمه . . وبقي الحاج إسماعيل ينتظر أن يفسح له مكان لأداء الصلاة!

أراد المدير أن يأمر سبتي بالكف عن الصياح والضرب على الباب، فلم يستجب له!! فتله بعنف وهو يصرخ به:

ـ أنت . .

أنت أيها الغبي . . أنت تثير أعصابنا!

ثم راح يهدد:

ـ أقسم بأن لا أدعك بعد اليوم في المؤسسة. سأبعدك إلى آخر الدنيا..

إلى آخر فرع..

إلى أبعد فرع في العراق.

كفَّ سبتي عن الضرب.. وبقي واقفاً جامداً في مكانه رافعاً يديه مستنداً بهما على باب المصعد، وقد مال رأسه إلى الأمام.

كان يبدو ببدلته السوداء الغبراء كأنه كتلة من الصخر الأصم!!

ـ سأبعدك إلى الموصل.. إلى زافو.. إلى سنغافورة!

تحركت الكتلة الهائلة ببُطء، واستدار سبتي وقد تغير شكله وصوته ووضعه!! وأخذ ينظر إلى المدير نظرة غريبة رهيبة مرعبة!

ـ أنت تهددني..

بلع المدير ريقه..

ـ سأنقلك إذا.. إذا..

ـ أنت تهددني..

ـ إنني..

ـ أنت أيها الحيوان الصغير السخيف القذر.

التصق المدير بجدار المصعد، وتمنى لو كان المكان أرحب.. وقال بصوت ضعيف مريض متخاذل:

ـ اخ.. رس..

ـ أنت تهددني..

كانت العينان الصفراوان يتطاير منهما الشرر.. ووجهه ويده.. وكل أعضائه تريد أن تنقض على المدير فتدكه!!

ـ أنت تهددني . .

أيها الحيوان الصغير السخيف القذر .

كانت الكلمات تخرج مع الرذاذ المتطاير من فمه كأنها الحمم . .

ـ أنت تهددني . .

وتلفت المدير . .

بمن يحتمي؟!

ـ أنت تهددني؟

سأقتلكم جميعاً . .

سأخرج وحدي حياً . .

ثم انحنى فحمل الحقيبة السوداء بيديه، ورفعها عالياً وهبط بها بقوة على رأس المدير!!

صرخ المدير :

ـ آخ . .

ـ أنت تهددني . .

أحاط به الحاج إسماعيل وعبدالفتاح وصبحي وراحوا يهدئونه .

ـ إنه يحبك .

ـ إنه يريد أن يجعلك رئيساً للفراشين .

ـ إنه يمزح معك .

رفع الحقيبة مرة ثانية وهبط بها على كتفه . . فصرخ المدير :

ـ أبعدوه عني . . إنه يريد أن يقتلني .

ـ سأقتلكم كلكم . .

أنت تهددني . .

هزه عبدالفتاح بقوة:

ـ اسمع..

اسمع.. إنه يريد أن يجعلك رئيساً للفراشين.

هل تريد أن تخسر المنصب؟

ـ منصب؟

ـ نعم..

ـ منصب؟

راح صبحي يوضح:

ـ ستكون رئيساً للفراشين في سنغافورة.. ثم رئيساً للرزامين في كاتانيا.. ثم..

ـ لا أريد أن أكون (ثم)..

التفت السيد صبحي إلى المدير:

ـ لا يريد أن يكون (ثم).

ثم عاد فسأله:

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أريد أن أذهب إلى البيت..

التفت صبحي وكرر العبارة:

ـ إنه يريد أن يذهب إلى البيت.

قال الحاج إسماعيل بلطف:

ـ إنك إذا تحركت كثيراً، وتكلمت كثيراً، نفدت طاقتك، فلا تستطيع أن تتحمل.

لم يستطع سبتي أن يفهم كلام الحاج إسماعيل، ولكنه شعر أن

الرجل لا يخدعه.

أضاف الحاج إسماعيل وهو يكلمه باحترام:

ـ أريد أن أصلي العشاء.. إذا سمحت.

ثم قال كأنه يحدث نفسه:

ـ لا أريد أن ألقي الله وفي عنقي دَين!

ثم توجه إلى القبلة، بعد أن أشار إلى السيد عبدالفتاح أن يفسح له.. ثم رفع يديه وقال:

ـ الله أكبر..

لم تكن ثائرة سبتي قد هدأت تماماً.. كان ينظر إلى المدير..

ـ أنت تهددني..

رفع السيد عبدالفتاح إصبع السبابة إلى فمه. مشيراً إلى سبتي بالسكوت.. تماماً كما يفعل مع طفل صغير في الثانية من عمره.

راح الحاج إسماعيل يقرأ بصوت أليف حنين حلو النبرات.. وراح الجميع يصغون.. ويتفكرون.. عبادة عجيبة فريدة..

وقفة انقياد وتسليم وتعظيم..

ثم ركوع للإله العظيم.. الواحد الأحد.. الفرد الصمد!

فاعتدال..

ـ فسجود..

غاية الطاعة.. غاية الانقياد..

غاية الحب مع غاية الذل!!

لابد أن الله تعالى.. الذي فرض هذه العبادة.. الذي نعبده ونحبه.. أكبر من كل ما نتصور.. وأعظم مما يتصور متصور!!

الله أكبر . .

هذه الكلمة . . بتكرارها في الصلاة تؤكد ذلك . . تؤيد وتؤكد في كل حركة من حركات الوقوف فالركوع فالسجود . . الله أكبر . .

لا حاكم . . ولا وزير . . ولا عظيم . . ولا حقير . . ولا رئيس . . ولا . . ولا أولئك رؤساء الدول الكبيرة الذين يهددون ويرعدون ويزبدون . .

كل أولئك سينتزعهم الموت من بين أتباعهم . . سيلقون في حفرة صغيرة حقيرة مظلمة . . وسيعلم أولئك المتكبرون . . وغيرهم . . وغيرهم . . أن الكبير هو الله . . وأنهم كانوا صغاراً صغاراً مخدوعين .

الله أكبر . .

وله الكلمة . .

وله الأمر . .

وبيده الملك . .

وهو على كل شيء قدير .

. . . . . .

دخل الحاج إسماعيل الصلاة بكلمة : الله أكبر . وخرج منها بكلمة : السلام عليكم ورحمة الله .

لم يلتفت .

لم يأت بحركة تخل بصلاته .

كان في صلاته كأنه خرج من الدنيا . . ثم عاد إليها بعد الفراغ منها !

عندما انتهى الحاج إسماعيل من صلاته ، نهض واقفاً وقال :

ـ إنني أسمع صوتاً . .

أنصتوا . .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٤ ـ عَن خَاطِرك.. يَا أرضنَا...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كان الصوت واضحاً، ولكنه بدا وكأنه آتٍ من بعيد. صرخ سبتي من مكانه:

ـ عباس.. تايه.. جابر.

ثم استدار بسرعة نحو باب المصعد وقال:

ـ هذا حسن أبوالكبة.

ثم أخذ يصيح وهو يضرب بقبضته على الباب:

ـ حسن.. حسن أطراش.. حسن كبة.. أطرش حسن.. كبه حسن..

ثم راح يصب عليه سيلاً من الشتائم القذرة عليه وعلى أبيه وأمه وبائع الكبة وآكلها وعاملها!!

ثم انحنى، وأخذ الحقيبة التي كانت قد سقطت من يده.. وضرب بها باب المصعد عدة ضربات وهو يردد:

ـ أطرش حسن.. أطرش حسن.. أطرش حسن..!

ثم ترك جسمه الكبير يسقط، وجلس في الزاوية، وفتح رجليه، واحتضن الحقيبة السوداء.. ثم رفع رأسه ينظر إلى المروحة في سقف المصعد، وقد بدت عيناه شديدتي الاصفرار، وقال بصوت مريض متعب:

ـ إنني أشعر بالبرد..

ضغط السيد صبحي على المفتاح فتوقفت المروحة. ثم جلس في الزاوية المواجهة لسبتي، وجلس عبدالفتاح إلى جانبه.. ثم جلس الحاج إسماعيل وهو يقول

ـ يا الله .

ألقى سبتي الحقيبة بين رجليه، واستند على كفيه، ومال برأسه إلى الجهة اليسرى، وفتح فمه الكبير، وراح في إغفاءة عميقة! . ثم أخذ يلوك بفمه كأنه يمضغ شيئاً! وأشار السيد عبدالفتاح إلى المدير أن يجلس، فرفض بإشارة من يده، فتبسم السيد صبحي، ومال السيد عبدالفتاح عليه وقال هامساً:

ـ المديرون لا يجلسون!!

ثم تنهد، وأغمض عينه، وراح يستعرض مع نفسه سلسلة أيامه السابقة . .

إنتقل من أرض . . إلى أرض . . إلى أرض . .

إلى العراق . .

إلى بغداد . .

. . . . . .

قبل عشرين عاماً . .

كنت أعيش في قرية، صغيرة، جميلة . . في فلسطين . .

إجزم . .

عطر العطر نسيمها . . وتبر التبر أرضها . . وسحر السَحر جوها!

إجزم . .

يا مربع الصبا . .

أمي وأبي وأقاربي كانوا هناك .

في صباح يوم . .

لا أتذكر أي يوم . .

الصورة الرهيبة استقرت في ذاكرتي . .

في صباح يوم . .

مزق هدوء القرية أصوات محركات سيارات يهودية .

أحاطت السيارات اليهودية القرية من كل جانب .

نزل الجنود يحملون بنادق رشاشة . .

أجبرونا على الخروج من منازلنا والوقوف بالعراء .

أخرجونا كلنا . .

لم يبق في القرية كبير ولا صغير . .

أمرونا بالركوب في السيارات . .

وسارت بنا . .

إلى أين . . ؟

ماذا يريد منا هؤلاء؟ . .

لم يستطع أي وجه من الوجوه الحزينة التي تحيط بي أن يسعفني بجواب .

إلى أين يريدون أن يذهبوا بنا . . ؟!

النساء يحتضن أطفالهن كأنهم يخشين أن ينتزعوا منهن . والرجال تدور في رؤوسهم وترتسم على وجوههم ألف كلمة حائرة!

وعجلات السيارات تدوس على قلوبنا!

لا أدري مقدار المسافة التي قطعتها . .

ولكنها سارت . . وسارت . . ودارت . .

ثم وقفت .

وأقبل الجنود اليهود يأمروننا بالنزول .

هذا مرج بني عامر . .
المرج الجميل الوديع الأخضر .
المثقلة أشجاره بالبرتقال . .
هذا مرج بني عامر . .
استق لنا الزرج بكل حب وحنان .
قضينا بعض الوقت . تناولنا خلاله الطعام .
ثم أمرونا بالركوب في السيارات . .
شعرنا بحنين المرج إلينا . .
أشجار البرتقال تميل إلينا . .
طيور الأيك تودعنا . .
لم نملأ صدورنا من هوائك العطر . . يا أرضنا العزيزة ! !
لم نملأ عيوننا من رياضك الخضر يا بلادنا الحبيبة ! !
. . . . . .
كانت الأشجار تتشبث . . تريد أن تتعلق بنا . .
كانت الأرض تبكي . . تريد بقاءنا . .
وقلوبنا أيضاً تريد . .
وعيوننا أيضاً تريد . .
ودموعنا هطلت تريد . .
واندفعت السيارات . .
لم تعد بنا إلى قريتنا . .
لم تعد من نفس الطريق الذي أقبلت منه . .
سارت في غير الاتجاه الذي أخذتنا منه . .

لوَّحت الأشجار بأغصانها . . تودعنا . .
والأرض . .
والسحاب الأبيض . .
والطيور الصغيرة التي لم تسعفها أجنحتها الصغيرة للحاق بنا . . !
ومضت السيارات . . .
ومن خلال السيارات . .
ومن خلال الصمت الحزين . .
ومن خلال الألم الذي امتلأت به الصدور .
ارتفع صوت جميل حنين حزين . .
امرأة من بلادي . .
من قريتي . .
من عائلتي . .
راحت تودع بلادي الحبيبة . .
«نحن نوينا على السفر . . عن خاطرك يا أرضنا» .
فانفجرت القلوب بالدموع . .
وانخرط الجميع في البكاء . .
وشعرت بقلبي يتمزق . .
وأردت أن أصرخ . . !!
قوم يقبلون من آخر الدنيا يأخذون مني بلادي . .
يأخذون أرضي . .
يأخذون قريتي . .
يأخذون بيتي . . ومتاعي . . وما أملك . .

ثم يقذفون بي إلى الحدود..

قذفوا بي في وجه سبع دول عربية ملأت إذاعاتها الدنيا زعيقاً ونعيقاً..

أكذا تفعل القوة الظالمة؟!!

يسلبون داري.. قريتي.. بلادي..

وملوك الطوائف يتصارعون بينهم..

والأندلس تضيع..

والأرض تغتصب..

وشعبي الحبيب يشرَّد..

آه يا أندلسي الحبيبة..

يا فلسطين العزيزة..

يا منزل الرسل..

يا مقر الخليل..

.....

.....

كنت صغيراً آنذاك..

ولكني كنت أفهم.. وأعي.. وأتألم.. وأشعر بما يشعر به الرجال.

أقسمت أن أعود..

أن أحرر أرضي.. قريتي..

أن أسترد داري..

وإذا مت..

فسيبقى هذا الصوت.
هذا القسم..
يحرك أطفالي..
يثير أحفادي..
حتى يقف واحد منهم ذات يوم..
على قبري..
ويقول:
ـ أبشر يا أبي.. لقد عدنا..
وعادت أرضنا..
لنا.....!!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٥ ـ سَنَوات الجَفَاف...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

لا أدري لماذا لم أستطع أن أنسىٰ ذلك الصوت المودع الحزين . .
إنه يطرق عقلي وقلبي . . ويرن في أذني صباح مساء . . يعيش مع كل دقة من دقات قلبي . .
عن خاطرك يا أرضنا . .
ذهبت صاحبته إلى سوريا . .
وجئنا مع من جاء . . إلى العراق . .
إلى بغداد . .
في بيوت صغيرة . .
حقيرة . .
قديمة . . .
رطبة . .
مظلمة . .
في محلة كان يسكنها اليهود . .
نبذونا!!
في قنبر علي . . تحت التكية . . سوق حنون . . (أبو سيفين)
في ملاجئ هنا وهناك . .
نبذونا!!
وعلى جبيننا كتبت كلمة : لاجئ .
بكل ما تحمل من ذلة وعار وهزيمة!!
أنا أرفض . .
أرفض هذه الكلمة الذليلة الهزيلة الهزيمة التعسة . .

إنني مهاجر . .

وسأعود إلى القدس كما عاد المهاجرون إلى مكة ! !

أيظن هؤلاء الغرباء . . أننا كالهنود الحمر يمكن التغلب علينا وسلب أرضنا وخيراتنا؟ !

ألم يقلبوا صفحات التاريخ؟ !

هذه الشجرة الخبيثة الضارة التي غرست عنوة في أرضنا لابد أن تقتلع ! !

وسنعود إلى أرضنا . .

نحن المهاجرين . .

تتقدمنا راية محمدﷺ .

الراية البيضاء الخفاقة التي قادت المسلمين من نصر . . إلى نصر . . إلى نصر . . إلى عز . . إلى مجد ! !

إنا على موعد يا قدس فانتظري . .

هذا شطر من بيت لقصيدة رائعة ألقاها شاعر شاب في قاعة الشعب في بغداد . .

وارتفعت لافتات تحمل البيت بكامله . .

وخط على الجدران . .

إنا على موعد يا قدس فانتظري . .

يأتيك قبل طلوع الفجر جرارُ . .

لا . .

لا شاعر الإسلام .

ليس قبل الفجر إلا الظلام . .

قبل طلوع الفجر لا يتحرك شيء . .

ولكن . .

عند طلوع الفجر . .

الفجر الجديد . .

فجر هذه الأمة الذي طلع على العالم مرةً، فأيقظه وأنقذه . .

وتقدمت جيوشه الظافرة المظفرة إلى امبراطوريتي الضر والظلم والفساد فدكتهما!! وأقامت دولة الإيمان!!

دولة الأمن والأمان!!

دولة الحرية . . بكل ما تحمل حروفها الأربعة من صدق ومعنى . .

إنَّا على موعد . .

يا قدس فانتظري . .

يأتيك عند طلوع الفجر جرارُ . .

في الأيام الأولى من وصولنا إلى بغداد، داخلني يأس قاتل . . يأس من الحياة، يأس من الأمل في العودة . . يأس من كل شيء . .

كنت أسير في أزقة بغداد، أسيفاً حزيناً يائساً . . أريد أن أعود إلى أرضي . . لأموت تحت شجرة الرمان التي تقف قرب داري .

إنها لا تطيق العيش مع اليهود .

سيعذبونها . .

وقطتي . .

والدجاجات . .

والديك الأحمر .

وشاتي الصغيرة .

ولعبتي..

والشمس التي كنت أستقبلها كل صباح عندما ترفع عن رأسها الغطاء..

والوادي الفسيح..

ونسمتي..

وشجرتي..

والعصافير..

ومرج بني عامر..

و.. عن خاطرك يا أرضنا!!

كنت أذهب مع الشيخ علي إلى المسجد القريب.. كان المسجد صغيراً رطباً، تغطي أرضه حصران بالية..

مصابيحه ضعيفة كسيفة خافته. أما خطيب المسجد، فكان شيخاً ضعيفاً مريضاً هزيلاً، محني الظهر، مرتعش اليد، خفيض الصوت.. ثقيل الكلام!!

كان يقف على المنبر وهو يتكئ على سيف اختفى نصله في قراب أسود قديم مغبر! ثم يخرج من جيبه ورقة صغيرة مدعكة، تهتز في يده.. ثم يبدأ بإلقاء خطبته.. فيئن ويخن ويأتئ ويمأمئ ويقح ويمح.. وينتهي من خطبته القصيرة وقد نام أكثر المصلين، ولم يستيقظوا إلا عندما يقول:

- نبهني الله وإياكم من رقدة الغافلين..

فيسرع بعضهم إلى تجديد الوضوء!!

كان عدد المصلين لا يكمل الصف الأول.. فيهم السيد شاكر

المعلم في مدرسة الفضل وعبود أبوالكبة، وخضير أبو الرمان ومحمود الصباغ ومحمد أبو بكر الموظف في شركة دخان الرافدين وعبدالخالق الموظف في أمانة العاصمة وشاب ذكي نحيف من بلادي محمد الحانوتي!

وبعد صلاة.. وراء إمام مريض.. يخرج المصلون!!

كنت أقول للشيخ علي:

ـ لنذهب إلى جامع الحيدر خانة.. أو جامع مرجان.. أو أي جامع كبير..

فكان يجيبني:

ـ لا.. هذا أقرب.

وذات يوم..

تأخر إمام المسجد عن الحضور.

لم يستطع الخروج من بيته بسبب المرض.

فصعد المنبر شاب طويل جميل أبيض.. مشرب بحمرة رائعة.. يرتدي ثياباً وعمامة بيضاء ناصعة. صعد المنبر بخطوات قوية فتية شابة. وألقى بالسيف العاجز جانباً، ووقف أبو مجاهد يلقي خطبته بصوت جهوري يتفجر قوة وحيوية وروعة..

فانتفض المسجد بمن فيه..

وراحت العيون تتابع بدهشة ورغبة حركة يده وتعابير وجهه وسيل كلماته

ودب الحماس في كل رجل..

في كل قلب..

في كل حجر . .

فتوهجت المصابيح الخافتة، واستيقظت الهمم الراقدة وشعرت كأن صلاح الدين . .

كأن خالد بن الوليد، قد نهض من قبره، وامتطى صهوة جواده . . ودعا داعي الجهاد .

وهب المسلمون يندفعون .

بكل عزيمة . .

بكل فتىً

بلك بطل . .

لتحرير أراضيهم من أيدي الغاصبين .

الله أكبر . .

الله أكبر . .

وراح بصوته الشاب الشجاع، يفسر كلمات نسمعها كل جمعة ولا نفهم معناها . .

«واحفظ اللهم عبيدك الحجاج والغزاة المرابطين في برك وبحرك من أمة محمد يا كريم» .

كانت جيوشاً تدك معاقل الشر والشرك .

كانت جحافلنا تدق أبواب آسيا وأوروبا .

كانت أمتنا قوية عزيزة مهابة . .

كانت قواتنا ترابط في الثغور . . في البر . . في البحر . . في أعالي الجبال .

كانت أمة زاحفة . .

بإسلامها . .
بقرآنها . .
بتعاليم نبيها . .
بهتافها القوي الذي يبعث القوة والشجاعة والإقدام . .
الله أكبر . .
الله أكبر . .
كانت تلاحق جيوش الظلام فتهزمهم، وتقض مضاجعهم .
من هناك جاء هذا الدعاء . . النابض بالقوة والحركة والعزة والمنعة . .
الحجاج الذين يقبلون على بيت الله من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله .
والغزاة المندفعين لتطهير الأرض من أرجاس الوثنية الباغية .
والمرابطين للدفاع عن حوزة الإسلام في برك وبحرك من أمة محمد .
الأمة القوية العزيزة العظيمة بعظمة قرآنها وتعاليم نبيها وتأييد الله لها ! !
من هذه الأمة سيخرج ألف خالد . . ألف طارق . . ألف صلاح الدين . .
هذه أمة البطولات .
وأنتم أبناء أولئك الأبطال . .
أين أنت يا خالد بن الوليد !
في أرض الكنانة . . مع رهبان الليل وفرسان النهار . . !

في أبطال العراق. . الذين فتحوا بخارى وطاشقند ووصلوا إلى حدود بكين. .

في أسود الحجاز. . الذين قوضوا دعائم إمبراطورتي فارس والروم.

في فرسان الشام. . الذين فتحوا الهند والسند ووقفوا في وجه التتر وردوهم على أعقابهم. .

من الخليج إلى تطوان ثوارُ. .

شعب يزمجر في أحشائه النارُ. .

إنها نيران. .

تشتعل. . تستعر. . تتأجج. .

تصرخ:

إنا على موعد يا قدس فانتظري. .

يأتيك عند طلوع الفجر جرارُ. .

الجواد الأصيل ينتظر الفارس المقدام. .

والشعب النبيل ينتظر القائد الهمام.

وإنا على موعد يا قدس فانتظري. .

. . . . . .

أكثر من عشرين عاماً والسياط تلهب ظهر هذا الشعب. . أكثر من عشرين عاماً وسياط التأديب والترهيب تنزل على ظهره. . لكي يخضع. . لكي يخنع. . لكي يركع. . لكي يسلم بكل ما يراد به من هزيمة وشتيمة وعار يطوق به أبد الدهر. .

لكي يكبر الفأر ويحتل مكان الأسد!!

ليتمادَ الكفر في غيه وبغيه وظلمه وباطله وطغيانه . . وليمض في إذلال هذا الشعب الأبي النبيل الأصيل . .

فستحصد أجياله القادمة ما اقترفت يداه!

فإن الأعشاب الضارة التي زرعها الكفر في أرضنا لابد أن تموت . . والأمراض والأوباء والرياح النتنة وشجر الزقوم!!

ستذهب كلها . .

سنوات الجفاف ستنتهي . .

وسيشرق على أرضي فجر جديد . .

وستزدهر بلادي بكل ثمر لذيذ وزهر جميل ونبت مفيد!

أشجار باسقة . . وثمار يانعة . . وأنهار رائقة . .

ستنتشر الزهور في كل بقعة . .

ستغني الطيور . .

وتغرد العنادل . .

وتنطلق الغزلان والشياه آمنة مطمئنة ترتع من النبع الزلال . .

لاتخاف ذئباً ولا أفعى . .

لأن عقيدتي لا تنجب الذئاب . .

ولا تسمح للأفاعي بالاقتراب!!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٦ ـ بِنْت الخَيّاط...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أخذت عقارب الساعة تخفف الوطأ ما أمكن لكي لا تخدش بدقاتها ذلك السكون الشامل الذي لفَّ المصعد ومن في المصعد. وكان المدير يردد النظر بين فترة وأخرى إلى ساعة يده التي بلغت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل!. وكانت يده اليمنى تحاول في فترات ليست متباعدة الضغط على مفاتيح المصعد، وفيما عدا ذلك كانت أنامل يديه في صراع مع بعضها، ثم تنتقل بحركة عصبية لا إرادية إلى أذنه إلى الحبيبات البارزة تحت شفته، إلى ذقنه، إلى رأسه، ثم تغوص في جيبه تعد قطع النقود المعدنية فيه!!

كيف يسرع الشيب إلى شارب الرجل قبل رأسه؟ كان الشيب قد غطى شارب السيد عبدالفتاح.. أما شعر رأسه، فلم ينل منه إلا قليلاً!

فتح السيد عبدالفتاح عينه، بعد أن عاد من جولته في عالم الذكريات.. وسأل المدير:

ـ هل تريد أن تبقى واقفاً حتى الصباح؟!

تمطى السيد صبحي وقال وكأنه يتحدث في نومه:

ـ كبار الموظفين لا ينامون.. إنه مدير!

تبسم عبدالفتاح، وقال مقلداً لهجة المدير:

ـ خمسة أيام قطع راتب!

اضطر المدير إلى الانحناء، فدفع رجل سبتي ليوسع المحل، ثم جلس غاضباً وقال متوعداً:

ـ إن غاية ما يمكن أن نلبث في هذا المصعد إلى الصباح.. حتى الساعة السادسة، حيث يأتي الحارس عباس ليتسلم دوره! وسيندم كل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

منكما على تصرفاته!

ضحك السيد عبدالفتاح قبل أن يتم المدير عبارته، واستيقظ السيد صبحي فتبسم وقال بفتور:

ـ الحارس الثاني لا يأتي إلا بعد العصر.. وفي أيام العطل والأعياد لا يكلف الحارس نفسه عناء الدخول إلى المؤسسة.. بل يكتفي بالجلوس في المقهى، ثم يأتي لإلقاء نظرة على الباب ثم يعود!..

فإذا أقبل المساء.. ذهب إلى بيته!!

أنت تعلم هذا..

ـ أنت أردت النزول في المصعد.

ـ أنا؟!

ـ عبدالفتاح.

تبسم عبدالفتاح وقال ساخراً:

ـ لو لم تكن معنا لتحرك المصعد.

ـ المصعد يسع عشرة رجال.

ـ أنت المذنب الكبير..

اختنق المدير من شدة الغضب وقال منذراً ومتوعداً:

ـ أنا لا أستطيع أن أتجاوز عن اعتداءاتكم أكثر من هذا الحد.. أنا أستطيع أن أبعدكم إلى آخر فرع في المؤسسة.

ـ إلى سنغافورة...

قالها السيد صبحي وهو يضحك..

سكت المدير قليلاً، راح يبحث عن كلمة يستطيع بها أن يحفظ كرامته، ويوقف بها تجاوز هذين الموظفين اللذين كانا قبل ساعة

يخطبان وده.

ـ لكن..

ـ تكلم.. نريد أن نسمع قراراً جديداً.

ـ ولكني طيب القلب.. ولا أحقد على أحد.

كرر السيد صبحي عبارته وهو يشير بسبابته:

ـ إنه طيب القلب ولا يحقد على أحد!

ـ أنت المذنب الكبير.

ـ لا أريد أن أشترك في أية لجنة بعداليوم.

تثاءب الحاج إسماعيل، وفرك عينيه ثم فتحهما وقال:

ـ ما زال أمامنا أمل في النجاة.. هل منكم من أخبر أهله باجتماعنا في المؤسسة؟

ـ أنا لم أخبر أحداً.

ـ ولا أنا..

ـ أنا أخبرت زوجتي بأني سأعود في الساعة الثامنة.. ولكني لم أخبرها بالاجتماع.

تنهد الحاج إسماعيل وقال:

ـ كلنا وقعنا في نفس الخطأ. لم يبق إلا سبتي.

ـ ماذا تستطيع أمه أن تفعل؟

ـ قد تأتي لتسأل الحارس.. أو تذهب إلى أحد الموظفين.. أو.. هز المدير رأسه وقال بيأس:

ـ لا أظن أنها تفعل!!

فتح سبتي عينه اليمنى، وتطلع في الوجوه ببلاهة.. وفتح فمه كأنه

يبتسم، أو كأنه يبكي. . أو كأنه يريد أن يقول شيئاً. . ثم عاد إلى النوم وهو يحرك فمه كأنه يجتر الطعام من بطنه!!

ضرب صبحي كفاً بكف وهو يقول متعجباً:

ـ كيف يستطيع هذا أن يستيقظ وينام ويمضغ بهذه السهولة؟!

وراح الجميع ينظرون إلى سبتي الذي أخذ يرطن بكلمات غير مفهومة، ثم سكت ومال برأسه إلى جدار المصعد!

سأل الحاج إسماعيل:

ـ هل نستطيع أن نسمع أذان الفجر؟

نظر عبدالفتاح إلى ساعته وأجاب:

ـ إنها الثانية إلا ثلثاً.

ـ بقي أكثر من أربع ساعات. . أربع ساعات و. . سأل المدير وهو يفرقع أصابعه:

ـ متى يطلع الفجر؟

ـ في الرابعة إلا عشر دقائق. . لا. .

في الخامسة إلا عشر دقائق.

ـ إذن بقي أربع ساعات وعشر دقائق.

بادر السيد عبدالفتاح يقول مصححاً:

ـ بل ثلاث ساعات وعشر دقائق.

ـ نعم.

قال الحاج إسماعيل:

ـ أرجو أن تنبهوني إذا سمعتم أذان الفجر.

فسأل السيد صبحي:

ـ متى تطلع الشمس؟
ـ قل متى تشرق الشمس؟
نظر السيد صبحي إلى السيد عبدالفتاح وسأله:
ـ هل أخطأتُ في التعبير؟
ـ أظن.. اسأل الأستاذ.
وأشار بطرف عينه إلى المدير.
ولكن الحاج إسماعيل أجاب:
ـ في السادسة وعشرين دقيقة.
ثم أضاف موضحاً:
ـ أي أن الفترة بين طلوع الفجر وشروق الشمس ساعة ونصف الساعة.
قال المدير:
ـ تستطيع أن تنام أربع ساعات.
ثم تمتم قائلاً:
ـ ولكن النوم يفسد الوضوء.
أجاب الحاج إسماعيل:
ـ سأتيمم.
ـ ولكن..
رفع المدير يده إلى جبهته وراح يبحث عن الكلمة التي يريد أن يقولها.. ثم خفضها وقال:
ـ إذا حضر الماء بطل التيمم.
ـ وأين الماء؟
ـ في المؤسسة.. على بعد خطوات من المصعد.

ـ هل أستطيع الوصول إليه؟

أطرق المدير رأسه دون أن يجيب. . ولم يفهم السيد صبحي شيئاً مما دار. وكان السيد عبدالفتاح قد جمع ركبتيه، ولفَّ ذراعيه حولهما، وانحنى برأسه وراح في إغفاءة سريعة.

ساد السكون لمدة طويلة، أغمض الجميع خلالها عيونهم، ومالوا برؤوسهم، وراحوا في إغفاءة قلقة تعبة. . وكان السيد صبحي يحاول أن يمدد رجليه، ولكنها كانت تصطدم بسبتي فيسحبها!

كان أبوه حميد شريف، يشتغل فراشاً في وزارة المالية، في الطابق الثاني من البناية القديمة المهيبة التي خلفها العثمانيون، والتي تطل بساعتها الكبيرة الشامخة على دجلة! كان يذهب معه، فيتركه أبوه يلعب في الساحة قرب الساعة الكبيرة التي كان لدقاتها وقع كبير في نفسه. ومن هناك كان يمتع نفسه بالنظر إلى جانب الكرخ وجسر الشهداء، الذي حدثه أبوه عنه مرات ومرات بأنه قبل أن يشيد كان يقوم مكانه جسر خشبي تحمله قوارب حديد تسمى (دُوَبْ) واحدها يسمى (دوبة). وكان الجسر يفصل كل يوم في الساعة العاشرة. . لكي يسمح للسفن الكبيرة والعالية بالمرور! . . وعندها يقف الناس لمدة ساعة وأكثر. . بانتظار ربط الجسر من جديد. .

والعملية تتكرر كل يوم. . في نفس الوقت! . .

قال أبوه وهو يضحك:

ـ وهناك التقيت بأمك مع نافع الخياط. فلما سألته عنها قال: إنها ابنة أخي!

ـ وأين أخوك؟

ـ توفي قبل سنوات.

ـ إلى رحمة الله.

ثم تنحنح حميد وسعل.. وقال بصوت خفيض:

ـ أريد أن تزوجني ابنة أخيك.

فتبسم عمها بسرور، وشعر كأن حملاً ثقيلاً يزاح عن كاهله وقال:

ـ سأسألها.

ـ تسأل أمها؟

ـ إنها يتيمة الأبوين.. إنها تعيش في بيتي.

فامتلأ قلبه سروراً وقال متفائلاً:

ـ إنها موافقة إذن.

ـ سأسألها.

ـ متى أراك؟

ـ تعال إلى المحل.. غداً.

. . . . . .

أخبرها عمها بأن حميداً يشتغل موظفاً في وزارة المالية، وأنه يملك بيتين في محلة جديد حسن باشا خلف أمانة العاصمة. فوافقت مسرورة.. ورزق منها بثلاث بنات وولد واحد.. وعانت أمه الأمرَّين من أبيه! كان بخيلاً مقتراً شحيحاً مرابياً.! ومع بخله وتقتيره كان سكيراً، لا يمر عليه يوم دون أن يلوث فمه بشرب الخمر!! وكان إذا شرب في الليل، لم يعد تلك الليلة إلى البيت.. كان يقضي الليل في أحد الفنادق الواقعة في الحيدر خانة.. كان يعرف أصحابها، كان بعضهم يقترض منه النقود أحياناً فيضطر إلى السماح له بالمبيت في

الفندق دون أن يأخذ منه شيئاً!

وقد عاد ذات يوم من الدائرة، فرحاً مسروراً. . يفرك يديه ويضحك. وقد أكل على غير عادته. . أكل بنهم. . وشرب عدة أقداح من الشاي بعد الغداء. . لابد أنه عقد صفقة رابحة. . فما هي؟

سألته زوجه:

ـ هل اشتريت داراً؟

ـ عقدت صفقة تساوي ألف دار.

ـ خيراً إن شاء الله.

ـ أقرضت حسقيل خمسين ديناراً.

هل جن الرجل؟. .

يقرض رجلاً خمسين ديناراً فيعود مسروراً هذا السرور؟. .

وقبل أن تسأله مضى يقول:

ـ سأشرب الخمر مجاناً.

وعندما رأى وجومها صرخ بها:

ـ لماذا تنظرين إليّ هكذا. . حسقيل أبوروبين صاحب الحانة المجاورة لملهى الجواهري في الميدان اقترض مني خمسين ديناراً. .

أتفهمين معنى هذا؟

هزت رأسها بحزن:

ـ ستشرب الخمر مجاناً حتى يسدد المبلغ.

قهقه صاخباً. . ضاحكاً:

ـ ولا يستطيع تسديده!! سيسدد الربا فقط. . أما المبلغ فلا يستطيع تسديده!

ثم صار بعدها يذهب كل يوم إلى الحانة. . فيشرب ولا يدفع . . حتى تجرأ ذات يوم روبين ابن حسقيل. . وكان شاباً نحيفاً هزيلاً، مائل الأنف، مثقوب الأذن، مهمل الشعر، أحول العين اليسرى. . تجرأ ذات يوم بعد أن امتلأ غيظاً وطالبه بالثمن!! فنهره بقوة، وأراد أن يلطمه على وجهه. . وصاح غاضباً!

ـ اذهب إلى أبيك وجئني بالنقود حالاً.

فأسرع شليمو الياهو، وهو خال روبين، وكان يبيع السكاير في سلة مخروطية كبيرة يضعها على الأرض ويجلس بجانب حانة حسقيل!. . أسرع الياهو ـ كما ينادونه في الميدان ـ يتوسل ويعتذر:

ـ أرجوك. . اعتبره مثل ابنك.

ـ لو كان ابني لقطعت رقبته.

ثم أصر على أن يأخذ نقوده كاملةً مضافاً إليها ما ترتب عليها من ربا!!

وأقبل حسقيل يركض، وكان قد ذهب ليشرب كأساً من اللبن من السيد إبراهيم الكردي، أقبل يركض وهو يمسح بكمه فمه وشاربه. . وكان يرتدي قميصاً أسمر مخططاً وسروالاً أسود تغير لونه!

ـ نعم. . نعم ماذا تريد؟

ـ أريد نقودي. . ستين ديناراً.

وأسرع حسقيل إلى دفتر قديم قذر بعرض الكف وطول المسطرة وراح يقلب صفحاته رأسيا وهو يبلل إبهامه الأيمن بفمه كل مرة، وكان يتدلى من كعب الدفتر خيط طويل ربط في نهايته قلم صغير أسود!. . كان حسقيل يقلب الصفحات بسرعة وهو يخنخن:

ـ أنا سددت إليك المبلغ بكامله مع الفائض. . وربما بقي لي في ذمتك. .

صرح حميد مقاطعاً:

ـ أنت سددت . . متى؟

ـ أنت تشرب كل يوم مرة. . ومرتين. . وثلاث مرات. . وأنا أنزل ذلك من حسابك.

ـ تنزل من حسابي. . أي حساب؟

ـ المبلغ الذي اقترضته منك. . الخمسين ديناراً.

ـ لماذا؟

ـ هل كنت تريد أن تشرب الخمر مجاناً. . ؟!

أيد شليمو الياهو صهره فقال:

ـ هل تشرب الخمر مجاناً؟

ونزل صالح فيحا، صاحب ملهى الجواهري. . وكان يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً أصفر، ووقف يستمع إلى ما يدور ثم أيد كلاً من حسقيل وشليمو:

ـ لا يوجد في الميدان من يبيع الخمر مجاناً!

وفوجئ حميد بهذا، ولم يكن قد أعد للأمر عدته فصرخ كالمجنون:

ـ أنت لص. . أنا أشرب ثلاث مرات في اليوم؟

وعثر حسقيل على الاسم، فراح يجمع ويبلل القلم بفمه ثم يكتب. . ثم قال:

ـ أنت مدين لي بخمسة دنانير.

ـ أنا؟!

ـ إن أصل المبلغ خمسون ديناراً، والربا لمدة ستة أشهر خمسة دنانير، وأنت شربت بستين ديناراً..

انظر.. اجمع أنت.. أنا ضعيف بالحساب.

ودفع الدفتر إلى صالح فيحا.. فألقى عليه نظرة سريعة ثم أعاده وهو يقول:

ـ ستين ديناراً ونصف الدينار.

ودفع حسقيل الدفتر إلى شليمو، ولم يكن هذا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه ألقى نظرة سريعة كما فعل صالح فيحا ثم قال:

ـ أي.. خمسين ديناراً ونصف.

فصرخ صالح وحسقيل مرة واحدة:

ـ ستين ديناراً..

ـ أي.. أي.. ستين ديناراً و(غبع).

ـ ونصف الدينار.

ـ ونصف.. ونصف.. ونصف الدينار.. أنا قلت ونصف.

كان روبين يقف خائفاً، غاضباً، يتنقل بنظراته القالقة بين أبيه وخاله وحميد وصالح فيحا.. والرجال الذين تجمهروا ليشهدوا نتيجة النزاع، أو نهاية المهزلة!!

ـ ولم يدر حميد ماذا يفعل.. فصرخ بجنون:

ـ قبل ثلاثة أشهر.. أنا أقرضتك النقود قبل ثلاثة أشهر أيُّها اللص.

هل يستطيع رجل أن يشرب خمراً بخمسين ديناراً في ثلاثة أشهر؟!

وتدخل صالح فيحا بخبث، وقال وكأنه يريد أن يصلح:

ـ لا تذهب إلى الشرطة. . سيدفع لك ما بذمته أنا أكفله وتبخرت آخر ذرة من الصبر. . فصرخ حميد:

ـ أنت تهددني. . !

وهجم على الثلاثة يريد أن يبطش بهم:

ـ أنت صاحب المبغى الكبير. . أنت تهددني. .

وحال الناس بينه وبينهم، وهرب صالح فيحا صاعداً إلى الملهى. . وانزوى حسقيل في آخر الحانة وقد أخفى وراءه ابنه روبين. واستطاع شليمو أن يحمل سلة السيكاير ويدلف بها في الشارع القريب المؤدي إلى شرطة السراي!

ولم يستطع حميد أن يتحمل الصدمة العنيفة، والهزيمة الشنيعة، والخدعة الخبيثة، فراح يضرب على رأسه ويسب الحكومة التي سمحت لحسقيل بفتح المحل، ونوري السعيد والوصي. . وتجمع الناس يضحكون. . وراح يترنح في الشارع وهو يسب الحكومة ونوري السعيد والشرطة ينظرون إليه ويضحكون. . ثم سقط على وجهه قريباً من المصور عبد الرحمن. . وبقي ممدداً على رصيف الشارع إلى الصباح!! وعندما استيقظ، توجه إلى بيته، وانهال على زوجته سباً وضرباً:

ـ كيف تتركيني أنام في الشارع يا فاجرة. . اذهبي إلى عمك. . خذي ابنك معك. . لا أريد أن أراكما.

وصار يدفعها بقوة ليخرجها من البيت، وهي تحاول أن تتناول عباءتها فلا تستطيع! وأخيراً استطاعت أن تمرق إلى بيت محمود المتولي وهي تبكي. ثم طلبت إلى أم حكمت أن تذهب إلى البيت

لتأتيها بعباءتها. ولكنه أغلق الباب ولم يرد على أحد!!

استعارت عباءة من أم حكمت، وذهبت إلى عمها كسيرة أسيفة باكية. فنهض غاضباً مزمجراً:

ـ ذلك الحيوان.. يجب أن ألقنه درساً..

ولكنه تريث.. وعاد فجلس وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم طلب إليها أن تذهب إلى بيته، وأن تترك الصبي معه في المحل.

وفي المساء ذهب صبحي مع نافع إلى بيت عمه. وكان عمه.. أو عم أمه.. قد انتقل من الكراج إلى الأعظمية، محلة السفينة. باع بيته القديم في باب السيف واشترىٰ بيتاً ـ ليس جديداً ـ ولكنه أفضل من بيته القديم، قريباً من بيت السيد نصيف القبطان والدكتور سليم خياط خلف معمل صالح أفندي. وهناك.. هناك بدا له كل شيء جميلاً جديداً جذاباً..

رأى ابنة عمه ربحية.. التي تكبره سناً، جميلة صبيحة ممتلئة.. بعينين لوزيتين، وأنف مستقيم، وشعر أسود ناصح لامع، وثوب أبيض تنتشر عليه أوراد صغيرة متباعدة متقاربة.. كأن قماشه قد صنع لها وحدها دون غيرها!!..

كانت تتحرك بسرعة وخفة.. تضحك.. تمزح.. تصخب.. تستعمل يدها ورجلها ولسانها! وعندما صعد عمه إلى السطح بعد تناول العشاء.. انفردت به.. شدته من شعره الأصفر بقوة جعلته يكتم صرخة كادت تفلت من فمه! ثم نظرت في وجهه كأنها تتفحصه، ثم قالت وهي تضربه براحة يدها اليمنى على جبينه:

ـ يشبه وجه اليهود..

لم يرد عليها.. ولم تتكلم أمه.. ونام تلك الليلة فوق السطح وهو يتمثل وجه ربحية الجميل وهزلها وجدها ومرحها! ولم يجد في قبضتها له من شعره، وقسوتها عليه، إلا بلسماً لقلبه! وتمنى لو قضى العطلة الصيفية كلها في بيت عمه. لقد أنهىٰ الصف الأول المتوسط بنجاح.. وسينتقل إلى إحدى المدارس المتوسطة في الأعظمية.. ليكون قريباً منها.. يتنسم عطرها الفواح!.. ليت العطلة تمتد.. وتمتد.. وتمتد.. لتشمل العمر كله!!

وفي الصباح، أخذه عمه إلى المحل، بعد أن أوصى الأهل بأنه سيرسل صبحي ليأتيه بطعام الغداء. وكاد صبحي يطير من الفرح.. ستتهيأ له فرصة النظر إليها وقت الظهر. ولم يلبث مع عمه إلا قليلاً حتى سأله:

ـ هل أذهب لآتيك بالغداء؟

فضحك عمه وهو يقلب قطعة القماش على المنضدة الكبيرة التي أمامه، ويمسك بالمقص وقال:

ـ ستذهب عند أذان الظهر.

وأخذ يسرع كلما سنحت له الفرصة إلى جامع السراي ليسأل:

ـ هل أذن لصلاة الظهر؟

وقبل الأذان بقليل، وضع عمه في يده عشرين فلساً وقال:

ـ اذهب الآن.. اركب السيارة من باب المعظم.. وإياك والسير في وسط الشارع. ولا تقف في الطريق.

لم يكن في حاجة إلى توصية.. كان يريد أن يطير.. أن تطوى له الأرض.. أن يخطو خطوة واحدة فيجد نفسه في بيت عمه!! إنه يريد

أن يرى ربحية.. كان قد رآها قبل سنين.. في ذلك البيت.. القريب من بيت الدكتور تحسين العسكري.. في باب السيف. كان صغيراً.. وكان اهتمامه ذلك اليوم بالحلوى التي كانت تحملها بيدها وتغيظه بها.. كانت الحلوى تتدلى من يدها كأنها جدائل، أو كأنها شريط يحمل ألوان قوس قزح مع لون فضي رائع.. عنبر ورد! ولم تلبث أمه كثيراً، فقد عادت بسرعة.. ولم يذق عنبر الورد.. ولم ير شكله مرة أخرى، لأن بائعه لا يعبر إلى جانب الرصافة.. ولكنه أدرك اليوم.. بأنها العنبر.. وهي الورد.. وما كانت تلك الحلوى.. العنبر الورد.. إلا لتذكره بها!!. وكان لعمه أربعة أولاد أصغر منها.. أما أمه فكان لها ثلاث بنات أكبر منه تزوجن قبل سن الزواج!

وفكر وهو يركب الدرجة الثانية من سيارة مصلحة نقل الركاب لماذا لا يفاتح عمه بالزواج منها.. ولكن.. كيف يفاتحه وقد طرده أبوه وطرد أمه!!

ماذا يقول لعمه؟. يقول أريد أن تزوجني ابنتك وتقوم بإعالتي وإعالتها؟!.. لا.. سيقول له.. إنني على استعداد لأن أعمل معك مدى الحياة.. بلا أجر.. على أن تزوجني ربحية! ووجد الأمر سهلاً يسيراً.. لابد أن يفاتح عمه عندما يعود إليه بالغداء.

وعندما وصل إلى بيت عمه، دفع الباب ودخل.. ورآها تقف منتصبة أمام المرآة، وهي ترتدي ثوباً جميلاً جديداً أحمر.. وكانت تتحدث إلى امرأة طويلة نحيلة سمراء تقف قريباً منها وهي تقول:

ـ خذيه من هنا قليلاً.. ومن هنا..

كان يود أن يقول.. إنه أجمل ثوب، على أجمل فتاة.. كان قلبه

الصغير يهتف بهذا، ولسانه لا يجرؤ.. لا يستطيع. وبينما كان غارقاً في أحلامه العذبة، سمعها تصرخ به:

ـ من سمح لك بالدخول.. متى دخلت؟

ثم تقدمت نحوه في ثورة:

ـ لمَ لمْ تطرق الباب؟

ـ جئت آخذ الغداء لعمي.

ـ عمى في عينك وعين أمك وعين أبيك.. ابن الـ.. ثم دفعته في صدره.. وأدارته ودفرته في ظهره وهي تصرخ به:

ـ أنت تقف خارج البيت. ولا تدخل إلا بعد أن تطرق الباب.. وحتى إذا طرقت الباب فلا أسمح لك بالدخول.

وأرادت أمه.. وكان تغسل الملابس في طست كبير.. أرادت أن تدافع عنه:

ـ إنه بيت عمه.

ـ اخرسي أنت.. جريدة طريدة.. اذهبي إلى زوجك السكير الحقير الأبخر..

ثم دفعته خارج البيت وأغلقت الباب بعد أن ضربته على رأسه. ووقف خارج البيت وهو لا يسمح لعينه بالبكاء! لو استطاع أن يصارحها.. أن يصرخ في وجهها.. إنني..

وأرادت أمه أن تناديه، بعد أن وضعت أواني الطعام المصنوعة من الألمنيوم الفضي اللامع، والتي تشبه القدور الصغيرة، فوق بعضها وأغلقت الثالث بالغطاء وحملت «السفرطاس» لتسلمه إياه.. ولكنها نهرتها:

ـ لا . . لا تنادِه .

ثم أخذت (السفرطاس) . . وذهبت إلى الباب ففتحته ثم دفعت إليه وهي تقول :

ـ خذ . ولا ترني وجهك . . ابن الـ . .

فأخذه منها ، ووقف يتأملها بوجهه الأبيض الأصفر وفي عينيه توسل وعتاب ، وحب وإعجاب ! !

لا . . لا يستطيع أن يفاتح عمه بالزواج منها . . عليه أن يكسب ودها أولاً . لو تسمح له بالكلام معها ! ! وفي المساء ، كان يلوذ بعمه ، فيدخل معه . . وكان يجد أمه تبكي أحياناً ! !

كانت تهينها . . تقسو عليها . وتضربها ! !

حاولت أمه أن تشكوها إلى أبيها . . فزادت الطين بلة !

صارت تعاملها بأشد وأقصى مما كانت عليه . وتمنت أمه لو ماتت قبل أن ترى نفسها مهينة ذليلة كسيرة أسيرة في هذا البيت الظالم !

وعلى الرغم من كل ذلك . .

وعلى الرغم من كل ما عانى وعانت أمه وتحمل من ضربها وسخريتها وقسوتها .

وعلى الرغم من كل ذلك . .

كانت ملء قلبه وروحه ونفسه ! !

وفي الليل ، عندما ينفرد مع أمه . . كانت تحاول أن تبثه همومها وأحزانها ومتاعبها مع ابنة عمها ربحية . . فكان يستمع إليها بصمت وتمنت أمه لو شاركها بعض همومها . . لو تكلم ! !

وتمنى هو.. لو شاركته أمه بعض همومه، ولكنه لم يستطع أن يتكلم!

بقي ما يشعر به حبيساً في نفسه، في قلبه.. بين ضلوعه.

ـ هل رأيت أباك!

ـ لا.. لم أذهب..

تنهدت.. ثم تمتمت بعد فترة صمت:

ـ إنه لا يريد أن يسأل عنك.

وبعد فترة طويلة ظنت بأنه قد نام.. سألها:

ـ هل تريدين أن أذهب إليه؟

ـ أريد أن تذهب إلى البيت فتأتيني بالثوب الوردي والثوب الأزرق المنقط.. والعباءة.. العباءة الجديدة.. والحذاء الخفيف (الشحاطة) هل تستطيع؟

ـ سأحاول.

في الصباح أخبرت عمها بذلك.. فقال:

ـ أرى أن يذهب الآن.. لأن أباه سيخرج إلى الدائرة بعد ساعة، وربما لم يعد إلى البيت بعد الظهر.

ثم التفت إلى صبحي وقال:

ـ اذهب الآن.. وستتناول فطورك عندما تعود.

وامتثل صبحي.. وخرج يملأ عينه ونفسه من هذه المحلة الجديدة ذات الشوارع النظيفة الفسيحة.. ذات الرياح الندية الرخية، المغسولة بمياه النهر المعطرة بعطر ربح!! ولما وصل إلى بيت أبيه طرقه.. ثم طرق الباب مرة ثانية.. فسمع سعالاً شديداً وصوتاً

صارخاً يهز البيت:

ـ مَن؟..

ـ أنا. صبحي.

ولم ينتظر كثيراً.. فقد فتح الباب، ووقف أبوه ينظر إليه وكأنه لم يره منذ سنين.

ـ صبحي.

ـ نعم يا أبي..

فترك الباب مفتوحاً ودخل وهو يقول:

ـ هل تناولت فطورك؟

ـ سأتناوله عندما أعود.

ـ بل ستأتي معي.

ثم أشار بيده وهو يسعل بشدة:

ـ اجلس هنا.

جلس على الكرسي الخشب الذي أشار إليه، وانتظر وهو يهز جسمه فيصر الكرسي صريراً حلواً.. وراح أبوه يحلق لحيته ويعنى بقص شاربه. ثم غسل وجهه وارتدى ملابسه.. ثم سأله:

ـ هل أرسلتك أمك؟

ـ نعم.. إنها تريد العباءة الجديدة.. والثوب الوردي.. والثوب الأزرق المنقط.. و..

وحاول أن يتذكر الشيء الآخر.. ولكنه نسي!

رأى أباه يتجه إلى خزانة الملابس فيفتحها، ثم يحمل الثوب الوردي بيده ويتأمله كثيراً، ثم يرفعه إلى أنفه فيشمه.. ثم يلفه بعناية

كأنه يخشى أن يصيبه شيء. . وفعل نفس الشيء بالثوب الأزرق. .

أحضر فرشاة فنظف ذيل العباءة، ولفها بعناية فائقة ثم دس شيئاً ملفوفاً بورق سميك بين الثياب ولف الجميع بمنديل كبير أصفر.

ونظر إلى أبيه بارتياح. . لأول مرة يراه في هيئة محترمة نظافة وبزة وهنداماً. . إنه يشبه إلى حد كبير ذلك المدير الذي يجلس في قسم في وزارة المالية، والذي إذا أشار بيده أجابه الموظفون: نعم أستاذ.

كم تمنى أن يرى أباه جالساً مع الموظفين في أكبر قسم في أحسن موقع في أجمل بدلة!! ولكن. . وليس بعد لكن غير الحسرات!! إنه يتعاطى الربا والسكر والعربدة.

حمل اللفة، وسار وراء أبيه. . في شارع ضيق تنهض البنايات عالية على جانبيه فلا تسمح لنور الشمس بالوصول إليه. . ثم المصانع الصغيرة ثم المطابع ثم محلات التصحيف والتجليد ثم الحوانيت ثم شارع الرشيد. . حيث يوجد محل لبيع الكاهي مع القيمر قريباً من جامع الحيدرخانة. .

جلس مع أبيه يأكل، تمنى لو حمل كاهية مع قطعة كبيرة من القيمر وقدمها لها. . بل يقدم واحدة لها وواحدة لأمه. . ولكنها ستضربها في وجهه وتدفعه فترميه خارج البيت وتغلق الباب وراءه!

لم يرفع رأسه إلى الحاضرين. كان جالساً وعينه على الطعام وأحلامه وفكره وقلبه يتردد ويتلفت ويحوم حولها. . آه. . ونهض أبوه وهو يقول:

ـ الحمد لله.

ثم ذهب فغسل يديه وفمه وحمل كيساً يحتوي على كاهية وقيمر

وقال:

ـ خذ هذه معك.

ـ ولكني شبعت.

ـ خذها معك.

حمل لفة الملابس، والكيس الورق الذي يحتوي على الكاهية.. وودع أباه وسار نحو باب المعظم ليركب السيارة إلى الأعظمية، بينما اتجه أبوه إلى السراي.. إلى وزارة المالية. وعندما وصل إلى البيت، دفع الباب قليلاً، ونظر.. وأنصت، فلم ير ولم يسمع صوت ربحية.. ولكنه رأى أمه تنزل السلم وتشير بيدها:

ـ ادخل.

ودخل حاملاً إلى أمه لفة الملابس والكيس.. وفتحت أمه اللفة، ورأت الشيء الملفوف بالورق السميك فقالت:

ـ هل وضعت الحذاء هنا؟

فأجابها معتذراً:

ـ لقد نسيت.

ولكنها فتحت الورق السميك فوجدت حذاءً جديداً جميلاً يلمع فلما رأى ذلك تبسم وقال:

ـ لقد وضعه أبي.

ثم أضاف وقد رأى علامة الارتياح بادية على محياها:

ـ لف الثياب بعناية.. وتناولت الفطور معه.. و..

ـ وبعث إليك بالكاهي والقيمر.

فتبسم وهو يهز رأسه.

في تلك المحلة استطاع أن يتعرف على بعض الشباب الذين هم أكبر منه سناً. كانوا يختلفون عن بعض الشباب الذين يعرفهم، كان هؤلاء يبادرونه بالسلام كلما رأوه..

لم يكن يقف معهم كثيراً..

ولا يتحدث معهم إلا نادراً..

ولكنه كان يشعر باحترام كبير لهم..

خالد الزبيدي ونوري القبطان وهشام العمري و.. وشاب آخر أكبر الثلاثة سناً.. خليل إسماعيل نوح.

عندما عاد مع عمه في المساء.. لم يجد أمه.. قالت أم ربحية:

ـ جاء حميد قبل المغرب فصالحها.

قال عمه:

ـ لمَ لمْ ينتظر حتى أجيء؟

ـ أراد أن ينتظر.. ولكن ربحية أشارت عليه بأن يأخذها ويذهب خشية أن تتأخر.

ولما دخل عمه ليغير ملابسه.. نزلت ربحية وهتفت به:

ـ اذهب إلى أمك.. لا أريد أن أرى وجهك.

ونهرتها أمها بصوت ضعيف:

ـ دعيه يتعشىٰ.

ـ يأكل سماً وزقوماً.. ليذهب إلى أمه.

قال متردداً:

ـ أريد أن أسلم على عمي.

ـ لا تسلم على أحد.. اخرج.

أرادت أن تهجم عليه لتمسكه من شعره وتجره.. ولكن أباها خرج فصاح بها:

ـ أين يذهب طفل مثل في هذا الليل؟!

ثم أضاف:

ـ يا ربحية.. يا ربحية إنه..

فقاطعته صارخة:

ـ سأنتحر إذا بقي هذا الكلب أمام وجهي.

وقالت أمها بتوسل:

ـ لا نستطيع أن نتركه يذهب في هذا الوقت.. إنه صغير.

ولكنه أدار ظهره.. سيثبت لهم أنه يستطيع أن يذهب إلى أي مكان.. وفي أي وقت! وترك الباب مفتوحاً.. وخرج..

ولم يلتفت إلى صياح أمها!

.....

ماذا يصنع؟

كيف يجعلها تشعر به.. تحن إليه.. تعامله بعطف كما تعامل ابن عمتها؟

ابن عمتها سامي، شاب أسمر مؤدب وسيم يكبرها سناً وثقافة. في نفسه شيء من الغرور، وفي عينيه تطلع إلى المستقبل وإصرار على الرقي في سلم الوظيفة!! لم يكن يحب أن يلتقي بأحد من شباب محلة الدوريين في الكرخ، كان ينظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار.. إنه يلتقي بالطبقة الراقية! سيكون له بيت في البتاويين، أو الكرادة الشرقية.. سيشتري قصر شعشوع مهما كلف الأمر.

كان يحدثها إلى أين ذهب.. ومن أين جاء.. وبمن التقى.. ومع من تكلم.. كان السيد سامي يحب الأفلام الغربية والموسيقى الغربية.

كان يحدثها عن أصدقائه من غير المسلمين، وكيف يذهب إلى بيوتهم، ويجلس مع بناتهم بلا تكلف ولا خجل.. وكانت تصغي إليه..

وتضحك..

وتعجب..

وتسأله..

وتستزيده..

وهي يتحدث، ويبالغ.. ويكرر..

وهي تصغي إليه بأذنها.. وقلبها.. وحواسها..

وتتمنى لو تحدث وتحدث وتحدث!!

ومرت الأيام..

والأعوام..

وراحت ترد كل خاطب يتقدم لطلب يدها.. أملاً في أن يتقدم ابن عمتها لخطبتها..

ونفد صبر الوالدة..

فسألته أمامها:

ـ هل تريدها؟

وهز رأسه كالمتغابي:

ـ ماذا أريد؟

ـ هل تريد أن تتزوج ربحية؟

وكان الجواب قاسياً وقاضياً على كل آمالها:

ـ إنني ما زلت في أول الطريق.. كيف أربط نفسي بزواج يقطع علي طريق المستقبل.؟

ففقدت صوابها.. وصرخت به كالمجنونة:

ـ اخرج..

ووقفت أمها واجمة.. بينما اندفعت ربحية في ثورة حاملة حذاءها بيدها وهي تصرخ:

ـ اخرج ابن الـ...

فخرج يتعثر.. وضربته بحذائها فأصابت قفاه!!

وألقتها الصدمة على فراش المرض..

وظن الأطباء أنها ميتة لا محالة..

وسمع صبحي..

فكاد يُجن..

وهرع إليها..

لم يعد صغيراً كما كان بالأمس..

لم يعد متردداً.. ولا خجولاً بذلك القدر.

واقترب منها وهي طريحة الفراش:

ـ ربح..

لم تفتح عينيها..

ولم تنظر إليه..

كانت تظن أنه جاء شامتاً.... متشفياً.. فلم ترد أن تجب أو

تنظر إليه.

ـ سلامتك يا ربحية.

ـ دعني.

ـ أنت أحسن.. أليس كذلك؟

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. الحمد لله..

ومضت ترددها بصوت ضعيف، ثم أغمضت عينيها وراحت في إغفاءة خفيفة.. فلما استيقظت، ظنت أنه قد ذهب. فالتفتت إلى ناحيته. فرأته يطل بوجهه الأزهر وشعره الأصفر.. والدموع تحاول أن تطفر من عينيه والجفون تمسك بها!

ـ ألم تذهب بعد؟

ـ ليس قبل أن أطمئن عليك يا ربح.

ـ جئت تشمت بي.. ابن الـ..

ـ لا..

أنا أفديك بروحي..

لم تسمع في حياتها لهجة أرق ولا أجمل ولا أصدق من هذه.. تطلعت إليه:

لم يبق بي شيء ياصبح.

ـ بل أنت كل شيء يا ربح.

فتململت.. وتأوهت.. ثم قالت:

ـ هل جئت لكي تنتقم؟

ـ أأنتقم من روحي؟!

لم تستطع أن تصدق.. لقد ترك سامي في قلبها جرحاً كبيراً لا

يندمل بسهولة.. لقد أوصدت باب قلبها ووضعت عليه سبعة أقفال!!. ولكن لم توصد الأبواب وتضع الأقفال وقد ذهب كل ما لديها من رواء وبهاء كان يأخذ الألباب!

. . . . . .

وصار صبحي يعودها كل يوم..

يواسيها..

يشجعها..

ولم تعد تسبه، ولا تطرده.. ولا تمسكه من جمة شعره وتقذف به خارج البيت.

بل صارت ترتاح لمجيئه.. بل تنتظر مجيئه.. وتجد فيه بعض العزاء!

وتشجع ذات يوم، عندما رأى إقبالها عليه فسألها:

ـ هل تتزوجينني؟!

وفوجئت بسؤاله..

لم تكن تتصور أبداً أبداً.. أنه يريد أن يتزوجها!

فتبسمت.. وقالت:

ـ أنت تعلم أنني لا أملك القوة الكافية لكي أنهض فأطردك فجئت تسخر مني..

ـ أنا أسخر منك يا ربحية؟!..

أنا أحببتك منذ أول يوم جئت فيه مع أمي..

لم يستطع ذلك الضرب والشتم والطرد أن ينال من قلبي شيئاً..

كنت أبكي لأنك لا تعلمين كم كنت أحبك..

كنت أتألم..

كنت أقول يا رب متى تنتبه إليَّ.. متى تحس بي.. متى تشعر ربحية بحالي؟!

ليتني أستطيع أن أخرج قلبي وأضعه بين يديك لكي تري بنفسك أنه لا يحتوي إلا على صورتك الحبيبة! لكي يحدثك بنفسه عن نفسه!!

ولم تستطع أن تصدق أذنيها.. فبكت.. وأرادت أن تصرخ به، أن تطرده، ولكن صوتها لم يطاوعها، فجرت الغطاء فوق رأسها وراحت تبكي.. بصمت.

ونهض وهو يظن أنها ما تزال تكرهه.. وعاد إلى بيته وهو يقلب الأمور.. ماذا أفعل يا إلهي..

ورأته أمه.. ساهماً حزيناً.. فسألته عن حاله.. وأراد أن يصارح أمه:

ـ أريد أن أتزوج.

وتهللت أساريرها وقالت:

ـ أنا أعرف فتاة اسمها شيرين..

ـ أريد ربحية.

ـ أمها صديقتي.. أخلاق وجمال.. و..

ـ أريد ربحية..

ـ تستطيع أن تراها إذا شئت..

ـ يا أمي.. يا أمي..

ـ هل تعرف واحدة؟

فتريث قليلاً، وقال بصوت اجتهد أن يكون مقبولاً.

ـ يا أمي.. أريد ربحية.. ابنة عمك نافع الخياط. فصعقت وصرخت:

ـ من؟!!!!

وتمثلت أمامها كل ما عانته منها ومن جورها وقسوتها ووقاحتها وشراستها..

ـ أنسيت ماذا عملت بي.. ماذا عملت بك.. هل تريد أن تتزوجها لتضربني.. لتسخر مني.. لتطردني..

ـ يا أمي.. يا أمي. إنها لم تعد كذلك.

ونظر إليها وعيناه تترقرق بالدموع:

ـ إنها تموت..

ـ إلى جهنم..

رفعت رأسها، وفتحت جيبها وضربت على صدرها:

ـ يا رب.

وصرخ بانفعال:

ـ لا. لاتدعي عليها..

سأموت وراءها إذا ماتت. سأقذف بنفسي من فوق الجسر.. سأجن.. سأهيم على وجهي.. سأنام على القبرالذي ترقد فيه حتى أموت فأدفن إلى جانبها..

وعادت أمه تصرخ:

ـ أنسيت ذلك العذاب؟..

ـ لم أكن أشعر بشيء..

ـ كانت تضربك . . تطردك . . تسبك . . وتضربني . . وتسخر مني . . و . . و . . أأنت مجنون؟

ـ نعم . .

أريد أن تذهبي فتخطبيها لي .

ـ أنا . . ؟!

ـ نعم يا أمي . .

ـ أنا أذهب إلى القبر ولا أذهب إليها . .

ـ أرجوك يا أمي . . أرجوك . .

ـ لو كان أبوك حياً . .

ـ أبي لم يكن يهتم بي ولا بك ولا بأي إنسان . . أبي عاش بعيداً ومات حقيراً . . مات مخموراً على رصيف الشارع أمام مقهى عارف آغا .

وأعرضت عنه فلم تعد تكلمه . .

ولكنه أصر على الزواج من ربحية . .

وذهب إليها من اليوم التالي، وعاد يسألها :

ـ هل تتزوجينني؟

وسألته مازحة :

ـ هل ترضى أمك بذلك؟

فأجابها بصدق :

ـ لا عليك بأمي . . سأفرش لك قلبي . . سأضع عيني على الأرض لتطئيها بقدميك . .

فهتفت بانفعال . .

ـ تسلم عيناك.

وأدارت رأسها إلى الناحية الأخرى، وراحت، تمسح دموعها.. ومضت فترة قبل أن تقول بهمس:

ـ وتنسى؟

ـ أنا لم أتذكر شيئاً..

ـ تنسى تلك الأيام التي..

ـ أتذكر تلك الأيام الحلوة الحبيبة.. أنا أعلم أن صورة سامي كانت تحجب عن كل شخص.

ـ كان وهماً.

ـ والأوهام لا تدوم.

ـ ولكنك أصغر مني..

ـ إن قلبي لم يتعلق بغيرك.. أبداً..

ـ ولكنني مريضة.

ـ ستشفين بإذن الله.

ـ إن شاء الله.. سأقول لك عندما تتحسن صحتي.

ـ أنا أريدك الآن.

ـ قبل أن يزول عني المرض؟!

ـ إذا بقيت على هذا الفراش فلن يزول عنك المرض.. ولكن، سأنقلك إلى عالمي.. إلى بيتي.. وسيضل المرض طريقه فلا يصل إليك..

ـ سيزول من قلبها كل شيء إذا أحسنت معاملتها.

ـ أنت تريد أن تعوضني كل ما فاتني.

ـ نعم.

فتململت ثم قالت:

ـ لا أدري كيف أشكرك.

ـ أن تقبلي..

فتبسمت.... وهزت رأسها.. موافقة....

وتزوجها..

وزال عنها المرض..

وكتب الله لها حياة جديدة..

وصارت تتودد إلى أمه.. وتحاول أن تمحو عنها آثار أعمالها السابقة.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٧ ـ المُدير.....

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

كان الحاج إسماعيل يعاني في نومه من رؤى قلقة.. كلها تتعلق بالصلاة، والبحث عن ماء للوضوء.. والمدير يفزع من نومه بين فترة وأخرى، فيتطلع في الوجوه ثم يتحسس جيوبه كأن يخشىٰ أن يكون قد سرق منها شيء! وانحنى السيد عبدالفتاح على ركبتيه بعد أن جمع رجليه وأحاطهما بذراعيه، وراح في إغفاءة خفيفة.. وقد بدا شعره الأسود السبط تتخلله شعرات بيضاء!

فزع الحاج إسماعيل من نومه وهو يقول:

ـ هل سمعتم أذان الفجر؟

ثم نظر إلى ساعته وقال منزعجاً:

ـ إنها السادسة والربع.. لم يبق على شروق الشمس إلا خمس دقائق.

رفع الحاج إسماعيل رجل سبتي اليمنى ووضعها إلى جانب أختها، لكي يفسح مكاناً للصلاة. لكن سبتي عاد وفتحها. فرفعها مرة ثانية ووضعها إلى جانب أختها. ففتحها أيضاً. فحملها ووضعها فوق اليسرى، فأخذ سبتي يحرك رجليه دون أن يفتحهما ثم تركهما على وضعهما!

أسرع الحاج إسماعيل، ففتح كفيه وهو ينوي التيمم للصلاة:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم..

وضرب الأرض، ثم رفعهما وضربهما ببعضهما بصورة أفقية لينفض عنهما التراب، ثم قلب كفيه ونفخ في راحتيه، ثم مسح وجهه وكفيه. ثم نهض فصلى صلاة السنة ركعتين خفيفتين. ثم نهض مرة ثانية فأقام الصلاة وكبر لصلاة الفجر..

كانت قراءة الحاج إسماعيل قراءة هادئة حزينة.. قريبة من قراءة الحافظ خليل إسماعيل.. لا.. إنها قراءة ذات رعشة ونبرة.. ماذا تسمىٰ هذه القراءة التي جعلت جدران المصعد والمصباح الذي يرسل ضياءً هادئاً وكل شيء ينصت مأخوذاً مشدوداً مبهوراً!!

أي سر هذا الذي يجعل الإنسان يقرأ القرآن مرة ومرة.. وألف مرة.. ويسمعه مرة ومرة وألف مرة.. من الإذاعة.. من التلفزيون.. من القراء.. وهو يرغب في المزيد المزيد.. دون أن يمل أو يتبرم أو.. يا معجزة الله الخالدة!

وهل بعد هذه المعجزة معجزة؟!

. . . . . .

كان الحاج إسماعيل قد قرأ من قصار السور، وكان المدير يستمع وهو بين النائم واليقظان.. لم يؤد لله ركعة واحدة.. لم يجرب الصيام.. لم يحاول أن يتقرب إلى الله!.. كان..

واستيقظ سبتي قبل أن يسلم الحاج إسماعيل من صلاته فصاح بأعلى صوته:

ـ أم جمعة.

فاستيقظ الجميع وهتفوا به:

ـ ماذا تريد؟

فنظر في وجوههم ثم صاح:

ـ أم جمعة.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أذهب إلى الدائرة.

لم يفهم كلامهم. . وظل ينظر في وحوههم. . ثم صاح:

ـ أم جمعة. . . فطور.

قهقه الجميع ضاحكين. . محاولين خفض أصواتهم! . . قال السيد صبحي:

ـ هل تريد قوزي؟

ـ لا. .

ـ هريسة؟

ـ أنت تحب القيمر مع العسل.

ـ لا.

ـ ماذا تحب إذن؟

ـ تطلع في الوجوه كالمجنون، وسأل بخوف وريبة:

ـ ماذا تصنعون هنا؟

ـ نحن هنا من الأمس.

ـ لماذا؟

ـ وقف بنا المصعد فبقينا.

ـ لماذا لم تذهبوا إلى بيوتكم؟

ـ أنت. . لماذا لم تذهب إلى بيتك؟

حرك رأسه حركة بطيئة. . متنقلاً بنظره من واحد إلى آخر. . ثم سأل:

ـ من أنتم؟

ثم صرخ مستنجداً:

ـ أم جمعة.

ـ أنت في المصعد.
ـ أم جمعة.
ـ أمك ليست هنا.
ـ لماذا.. إلى أين ذهبت؟
أراد السيد صبحي أن يشرح له حقيقة الموقف ولكن الحاج الذي انتهى لتوه من صلاة الصبح أشار بيده:
دعه ينام.. وسنوقظه عندما تأتي أم جمعة.
ـ نعم.. أيقظوني عندما تعود.. أريد أربع صمونات تثردها مع الباميا والتمن.
ثم أسند رأسه إلى جدار المصعد، ونام.. وراح يمضغ!
هزَّ عبدالفتاح رأسه وهو يردد الشطر الثاني من قول الشاعر:
ـ وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم.
وتنهد وهو يتألم بحسرة.. وأضاف بصوت خفيض:
ـ كم يتمنى المرء أن يكون جاهلاً.. أحياناً!!
ثم نظر إلى ساعته وقال:
ـ هذه الساعة أيضاً.. قد ألمَّ بها ما ألمَّ بنا فلم تعد تعرف طريقها..
أجاب السيد صبحي وهو ينظر إلى ساعته:
ـ إنها السادسة والنصف.. إلا سبع دقائق.
تثاءب المدير وقال، وهو يدفع الكلام من خلال تثاؤبه:
ـ لنحاول مرة أخرى.. لعله يتحرك.
دفن السيد صبحي رأسه بين ركبتيه وأحاطه بساعديه، ولم يتحرك السيد عبدالفتاح من مكانه، ولا الحاج إسماعيل فنهض المدير، وأخذ

يحاول مع الأزرار.. ولكن المصعد كان عنيداً فلم يتحرك.. بل ظل يتحدى الرجال الخمسة القابعين في داخله.. سيتعبهم كما أتعبوه مئات المرات صعوداً ونزولاً.. سيجعلهم عبرة لغيرهم فلا يتحولون بعدها من السلالم إلى المصعد.. أبداً!!

عاد المدير فجلس يائساً حزيناً متذمراً مردداً بصورة لا إرادية ما كان يسمعه من أمه كلما ألمَّ بها أمرُ:

ـ يا الله.. يا مجير المستجيرين يا دليل الحائرين.. يا أرحم الراحمين. ثم راح يفكر في ابنه وأمه وزوجه!!

عندما أصبح مديراً للإدارة والذاتية، أقبل الموظفون يهنئونه.. وبعد يومين فتح الباب بلا طرق، بلا استئذان، ودخلت.. قامة متوسطة.. خطوات سريعة جريئة.. ابتسامة محيرة..! مدت يدها وهي تقول:

ـ تهانينا..

فارتبك، ونهض واقفاً، وصافحها:

ـ شكراً..

ـ هذا المكان لا يليق إلا بك.

أجاب متواضعاً:

ـ أرجو أن أكون له أهلاً.

ـ أنا عايدة.. عايدة إبراهيم.

ـ أعرفك..

أشار إليها بالجلوس:

ـ تفضلي.

ثم أضاف وهو ينظر إلى ثوبها الوردي الذي انتشرت عليه دوائر صغيرة من كل لون:

ـ إذا كانت لك حاجة.. فأنا.. (بالخدمة).

لم يدر لماذا قال لها ذلك..

لعله أُخذ بمظهرها.. بحركتها..

كانت تتحدث وقد أمسكت بيدها قلم حبر من النوع الجيد، وراحت تشير كأنها معلمة.. أو كأنها مديرة مدرسة!!

قبل أن يجلس على هذا الكرسي، لم يكن يفكر بها ولا بأية فتاة في المؤسسة. كانت تكفيه الهموم والديون والركض وراء المأكل والملبس والمأوى..!

استطاع أن يشتري قطعة أرض..

واستطاع أن يبني عليها بيتاً بعد أن غرق في الدين إلى أذنيه، وفوق أذنيه..!! حتى صار لا يعرف الدائنين بأسمائهم بل بوجوههم! ثم اقترض من المصرف العقاري.. فكان الربا المفروض على القرض يساوي المبلغ المقترض بل يزيد عليه!!

ووزع على الدائنين، ولم يستطع أن يغطي جميع الديون، بل بقي مبلغ كبير لا يقل عن المبلغ المسدد!.. وصار راتبه الصغير نهباً للمصرف العقاري والدائنين.. وصار يتبلغ مع أمه بالبقية القليلة الباقية من الراتب!!

كان أبوه عبدالمجيد صالح الأقرع، عامل بناء. كان يخرج مع أذان الفجر فيصلي الصبح في جامع الفضل، ولا يعود من العمل إلا بعد أذان المغرب.. فيتناول العشاء، ثم ينتظر قليلاً، ثم يذهب إلى الجامع

أيضاً لأداء صلاة العشاء، ثم يعود فينام!

كانت هذه حاله في موسم العمل.. في أيام الصيف، فإذا حلَّ البرد، ونزلت الأمطار، توقف البناء، وتوقف معه العمل!! وكان أبوه قد استعد لهذه الأيام. فاشترى للبيت ما يحتاجه طيلة أيام الشتاء من رز (تمن) وحنطة وتمر يابس (جسب) ودهن حر، وكيس فحم وبعض اللحوم المجففة (باسطرمة).

لم ير أباه يصلي في البيت، ولم يحاول الوالد أن يأخذه مه إلى المسجد.. ولم تكن أمه عزيزة بنت الحجية تصلي.. كانت امرأة ساذجة.

قالت لأبيه مرة:

ـ لماذا لا تأخذ خالداً معك إلى الشغل؟

فأجابها بحدة:

ـ لا.. لا أريد أن يعاني ابني ما عانيت.. أريد أن يذهب إلى المدرسة..

سألته بفرحة:

ـ متى؟

ـ كلمت اليوم جمال أفندي مدير مدرسة الفضل فقال أرسله يوم السبت.

فهتفت، وكأنها لم تصدق ما تسمع:

ـ يذهب ابني إلى المدرسة؟!

فتبسم بفخر وقال:

ـ سيكون مثل عبدالمجيد بن محمد وعبدالرحيم بن عبدالرحمن

حبيب.

وذهب إلى المدرسة..

وقف أمام المدير الطويل الصارم جمال أفندي، الرجل الذي استطاع بحزمه وقوة شخصيته أن يضبط المدرسة التي استعصى أمرها على المديرين والمعلمين الذين سبقوه. قال أبوه.. كأنه يعتذر عن إقدامه على تسجيل ابنه في المدرسة:

ـ أفندي.. إنه.....هو الذي أراد.

فقاطعه المدير وهو ينظر إلى الطفل مشجعاً:

ـ إنه يريد أن يُصبح مثقفاً.

ثم طلب الفراش، وأشار إليه بالعصا الطويلة التي لا تفارق يده إلا إذا غادر المدرسة بعد انتهاء الدوام.. أشار إليه آمراً:

ـ خذه إلى الصف الأول.

وفي الصف. شاهد أستاذاً نحيلاً سحيلاً أسمر، اختفت عيناه الصغيرتان، وراء نظارات سميكة، وقد جلس فوق الرحلة الأولى من الجهة اليمنى من الصف، والتي كانت قريبة من الباب، وقد خلع حذاءه وجوربه، وراح طالب أسمر شديد السمرة يدلك قدميه! وكان الأستاذ يرتدي بدلة سوداء تغير لونها، ويضع على رأسه الصغير سدارة سوداء أيضاً!

دخل خالد إلى الصف..

كان الطلاب كلهم ينظرون إليه.. كان يرتدي فانيلة جديدة بيضاء بنصف كم.. وسروالاً قصيراً جديداً أسود يستعمل للألعاب الرياضية عادة. وبخطوات حيية خجلة تقدم تتعثر رجلاه برجليه، حتى وصل

إلى آخر الصف، فشاهد رحلة قديمة مهدمة ما كاد يجلس عليها حتى صرَّت صريراً صارخاً جعلت الصف يضج بالضحك!! فأخذ المعلم.. من مكانه المشرف على الصف كله يلوّح بيديه يحاول إسكات الطلاب، ويتلفت خلفه وهو يؤصئص:

ـ أص أص ص ص..

وقفز الطالب الذي كان يدلك قدميه إلى الباب فنظر يمنة ويسرة ثم عاد مسرعاً إلى عمله وهو يقول:

ـ لم يسمع.

ثم أحكم المعلم وضع السدارة القديمة الممسوحة من الأسفل على رأسه، وأشار بيده:

ـ تعال..

نهض خالد خائفاً متردداً خجلاً، وتعثرت خطواته الصغيرة بحذائه الضيق القديم، وتقدم وهو يتوقع صفعة من يد المعلم تطير صوابه! ولكن المعلم الطيب تبسم في وجهه وصافحة قائلاً:

ـ أهلاً وسهلاً بالطالب الجديد.

ثم سأله عن اسمه.. فتبرع الطالب الأسمر، وكان يعرفه:

ـ خالد الأقرع..

فضج الطلاب بالضحك.. وأسكتهم المعلم وهو يشير بيديه يرفعهما ويخفضهما.. وقال بصوت محذِّر خفيض:

ـ لا يسمعكم المدير!!

وعندما سأله عن مهنة أبيه.. أجاب الطالب أيضاً:

ـ عامل بناء.

ولكنه استطاع أن يضيف بصوت خفيض ضعيف:

ـ إنه «اسطة».

ـ وشجعه المعلم على الكلام فسأله:

ـ هل تريد أن تصبح أستاذاً في البناء مثل أبيك؟

فتبسم، وقال بعد أن تردد قليلاً:

ـ أريد أن أصبح معلماً.

ربت المعلم على كتفه مشجعاً:

إن شاء الله. اجلس على تلك الرحلة.. إنها أفضل. وأشار المعلم إلى رحلة إلى جانب الطالب عبدالرحيم عبدالرحمن حبيب.

تلك كانت بداية رحلته إلى المدرسة.! ومرت الأيام، سوداء حالكة مهلكة. كلها قسوة وجفاف.. فقر وعوز وبذل الجهد في الحصول على كسرة الخبز وقطعة اللبس.. وما تريده المدرسة من أقلام ودفاتر!. وفي الليل، وعلى مصباح من الصفيح يتصاعد من فتيلة دخان أسود يكب على دروسه يقرؤها، وينجز واجباته..!

كان أبوه يواجه الفقر بشجاعة.. لم يتخلف عن أداء صلاة الفجر في جامع الفضل، كان يأمل أن تتبدل الحال إلى أحسن.. ويأتي الله بالفرج!!

وفي اليوم الأخير من الامتحانات العامة للخامس الإعدادي توفي أبوه! عاد من الجامع بعد صلاة الفجر، لم يذهب إلى العمل، قال إنه يشعر بألم في صدره، ثم تمدد على سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل.. وكان ذلك آخر عهده بالدنيا!!

لم يترك أبوه إلا ما يكفي لدفنه.. وإلا دراهم قليلة استطاع مع

والدته أن يتبلغ بها عدداً من الأيام! وكان عليه أن يشتغل هل يشتغل عامل بناء كما كان أبوه؟

كان يريد أن يصبح معلماً.

كيف الوصول إلى هذه الأمنية العزيزة!

قطع شارع الرشيد كله سيراً على قدميه، واستمر إلى شارع السعدون، فالكرادة الشرقية.. ثم عاد بعد أن نال منه التعب، فصعد إلى كازينو الرشيد المطلة على ساحة الملك فيصل. وجلس لينال بعض الراحة.. ثم شرب شاياً دافئاً، وأخذ يفكر في نفسه ومسيرته الطويلة، كان خائفاً متخاذلاً، متردداً. وقف أمام الكثير من المحلات، وحاول أن يسأل أصحابها إن كانوا يريدون عاملاً.. ولكنه لم يفعل!!.. حتى عاد وجلس هنا.. وسيخسر عشرين فلساً..

آه..

لو استطاع أن يحصل على درهم واحد في اليوم، خير له من أن يصرف درهماً!

عندما صعد إلى المقهى الصيفي (الكازينو) شعر بالدنيا تدور به، فوقف لحظات قبل أن يجلس إلى جانب السياج المقابل لمطعم العاصمة الذي يشرف على الشارع النازل من جسر الملك فيصل. كانت ساقاه تئنان من التعب. كان يتمنى أن يبقى جالساً إلى الفجر.. كيف يستطيع بعض الناس أن يحصل على عمل في يوم واحد؟!

قطع سلسلة أفكاره صعود رجل طويل نحيل معصور يرتدي بدلة حمراء داكنة ورباط عنق قديم ويضع على صدره وردة صغيرة حمراء ذابلة، وعلى رأسه طربوشاً كالذي يستعمله المصريون، ويحمل بيده

عصا غليظة من الخيزران. . كان منتصب القامة على الرغم من تقدمه في السن. . !

تقدم الرجل دون أن يلتفت يمنة ويسرة، واتجه إلى الأريكة التي كان يجلس عليها، فجلس على الجانب الآخر وهو يقول:

ـ السلام عليكم.

فرد عليه السلام، ثم رفع يده بالتحية قائلاً:

ـ مسَّاك الله بالخير.

فرد عليه الرجل دون أن يلتفت إلى ناحيته. في هذه اللحظة ارتفع صياح وصخب، ونهض رجل من الناحية الثانية المطلة على شارع الرشيد وهو يصرخ:

ـ إنه لم يعد. . أكثر من ساعة ولم يعد. . أعطيته ديناراً ليشتري لي علبة سيكاير فأخذ الدينار وهرب. .

كان الرجل عملاقاً ضخماً. . أسود، قصير الشعر، يرتدي قميصاً أبيض. وكان مع ضخامة جسمه وكبر رأسه، سخيف الصوت، كأنه يخرج من آلة موسيقية سيئة الصنع!! كان بعض الرجال حوله يتألمون لحاله. . وكان بعضهم، بعيدين عنه، يضحكون. وقد كف بعض الرجال الذين كانوا يلعبون (الدومنة) أو النرد عن اللعب، وراحوا يتابعون صراخه وحركات يديه.

ـ إنني لا أملك غيره. . صدقوني. . لقد هرب بالدينار.

ـ كان عليك أن تذهب بنفسك وتشتري السيكاير.

ـ أو تنتظر قليلاً حتى يمر أحد الباعة المتجولين فتشتري منه.

ـ إنه دينار بكامله. أأذهب إلى الشرطة؟

ـ ماذا تقول لهم؟ . . أنت سلمته الدينار بنفسك. كأنك أعطيته له!

كان صاحب المقهى الصيفي، يجلس قريباً من السلم وراء منضدة صغيرة، وضع عليها صينية مدورة من الألمنيوم، ووضع في الصينية قطعاً متراصة في نصف دائرة، نقوداً معدنية من الفلس والفلسين وأربعة الأفلس وعشرة الفلوس. وراح في حديث طويل جاد مع رجل يرتدي الملابس العربية الأصلية، عباءة سوداء جيدة النسج تشف عن الملابس البيضاء التي تحتها، وكوفية يحتضنها عقال جيد. كان يبدي اهتماماً زائداً ويهز رأسه تأييداً وتعجباً!

كان السيد خالد لا يفكر بشيء مما يدور حوله. . إنه يعيش مع همومه المتزايدة، مع فقره، مع الأيام التي قضاها باحثاً عن عمل. . أي عمل. . يستطيع أن يكسب من ورائه ما يكفيه وأمه!.

التفت إليه الرجل النحيف صاحب الطربوش وسأله:

ـ ماذا تشتغل؟

ـ إنني أبحث عن عمل.

كان صوته ضعيفاً إلى درجة ظن أن الرجل لم يسمعه، فأراد أن يعيد الجواب. ولكن الرجل المكلف بتوزيع الشاي أقبل وهو يحمل بيده اليسرى، وبصورة مدهشة، عشرة أقداح ملأى إلى أعلاها بالشاي، وقال بصوت قوي وهو يتناول قدحاً بيده اليمنى ويقدمه إلى الرجل ذي الطربوش:

ـ أهلاً علي أفندي.

ـ أهلاً.

وتناول القدح، وبإشارة من رأسه، دون أن يلتفت إلى السيد خالد،

قال:

ـ الولد يريد أن يشتغل.

كان العامل المكلف بتوزيع الشاي، طويلاً، بارز الصدر مرفوع الرأس، تلتف العمامة الشعبية (جراوية) بقوة وتحد حول رأسه، أقرن الحاجبين، طويل الشارب، حليق اللحية، أسمر. ! ذهب الرجل يوزع الشاي دون أن يتفوه بكلمة أخرى. . وارتفع صوت الأذان من جامع السيد سلطان علي، فنهض الرجل ذو الطربوش وهو يقول:

ـ يا الله. . صلاة العشاء.

وحمل العصا الغليظة بيده، وخرج بالطريقة التي دخل بها بعد أن ألقى عشرين فلساً في الصينية التي رصت فوقها النقود المعدنية والتي يجلس وراءها صاحب المقهىٰ. وانتبه الرجل وهو يتناول العشرتين اللتين القى بهما علي أفندي ويضعهما مع نفس الفئة من النقود المتراصة، انتبه إلى الرجل الذي فقد ديناره والذي كان يصرخ ويقول:

ـ سأبحث عنه في كل مكان حتى أسلمه إلى الشرطة.

ولما علم حقيقة القضية، نهض من مكانه، واتجه نحو الرجل، ووضع أمامه ديناراً، ثم عاد إلى مكانه وراء النقود!

وأصيب الرجل بارتباك شديد وحيرة، وتلفت حوله، ثم ترك المقهى دون أن يمد يده إلى الدينار! وكان العامل المكلف بتوزيع الشاي قد وصل إلى هناك، فحمل الدينار، وعاد به إلى صاحب المقهى، ووقف يحدثه قليلاً ثم انصرف إلى عمله.

لم يشأ السيد خالد أن يترك أمه تنتظر، فنهض وهو يخرج الدرهم الوحيد العزيز الذي ظل يحافظ عليه أكثر من أسبوع والذي قرر أخيراً

أن يودعه، لتحل محله ثلاث عشرات من الفلوس. وكان صاحب المقهى ينظر إليه وهو ينهض، وهو يتقدم نحوه، وهو يخرج الدرهم ويضعه في الصينية. ثم سأله:

ـ هل تريد أن تشتغل؟

ـ نعم (عمي).

أجابه بسرعة، دون أن يعلم ما هو الشغل، وأين.. أضاف الرجل:

ـ توزع الماء، وتجمع الأقداح الفارغة.. و..

ـ سأقوم بأي عمل تطلبه.

ـ الدوام من الساعة الرابعة عصراً إلى منتصف الليل.

ـ أنت تأمر (عمي).

أعاد إليه الدرهم وهو يقول:

ـ ستأخذ ثلاثة دراهم في اليوم.

كاد خالد يطير من الفرح.. فقد ظن أن ثلاثة الدراهم ثلاثمائة فلس!. ونظر إلى المقهى، فبدت في نظره صغيرة صغيرة، أصغر من نشاطه وقوته وفتوته! إنه يستطيع أن يدير عشراً مثلها!.. وبعد الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل، قبض الدراهم، وعاد مسروراً وهو يسير في شوارع بغداد الآمنة الساهرة بمحلاتها، بحوانيتها، بسير الناس فيها حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل!

ووجد أمه تنتظر في الشارع العام، وقد تناوشتها الوساوس، وذهبت بها الظنون كل مذهب، ومحمد أبو عبدالمجيد، وعبدالمجيد يطمئنانها:

ـ لعله اشتغل.

ـ لعله ذهب إلى السينما.

وهي ترد عليهم، وتلطم صدرها:

ـ من أين له النقود.. من أين له النقود.. إنه يحمل درهماً واحداً لم يصرف منه شيئاً منذ أعطيته له. ونظر عبدالمجيد.. وكان حاد البصر.. فصرخ:

ـ هذا ابنك قد عاد.

وهتف:

ـ خالد.

فشهقت وهي تسرع نحوه وتصيح:

ـ خالد.. أين كنت يا خالد؟

ـ كنت أشتغل.

وغمرتها فرحة مضاعفة:

ـ أنت اشتغلت يا خالد؟

ـ نعم.

ودس في يدها الدراهم الثلاثة.. فرفعت رأسها إلى السماء:

ـ الحمد لله.

لم يستطع أن ينام تلك الليلة، راح يحدث أمه:

ـ سأقبض تسعين درهماً في الشهر..

ـ تسعون درهم؟

ـ أي تسعة دنانير.

ـ تسعة دنانير.. الحمد لله الذي لا ينسىٰ عبده.. أبداً.

ولم يدرك إلا بعد يومين أنها أربعة دنانير ونصف الدينار شهرياً

وليست تسعة دنانير كما ظن. . ومع ذلك فإنها أفضل من لا شيء.

ولكن العمل كان مرهقاً. . كان في حركة وركض متواصل من الرابعة عصراً حتى الواحدة، أو الواحدة والنصف بعد منتصف الليل! كان يوزع الماء، ويجمع الأقداح الفارغة، ويلبي طلبات الزبائن. . (طاولي. . ودومنة) سيكاير وحاجات أخرى وأخرى ولا سيما عندما تجري لعبة الأرقام الفائزة «الدنبلة» أو «البنكو» كما يسميها الأجانب!! وكان عليه أن يشترك في كنس أرض المقهى، ورشها بالماء عصر كل يوم. فكان يعود إلى البيت محمولاً على ساقين تئنان إعياءً وتعباً!!

ومع ذلك، فقد استطاع أن يرى فئات كثيرة من المجتمع، الجيد من الناس والرديء، الشريف والوضيع، العامل والعاطل، الموظف والتاجر. . غيرهم وغيرهم!! وكان يشعر بالنفرة من بعضهم، وبالاطمئنان والراحة. . بل بالحب والميل إلى بعضهم الآخر. ! وكانت الفئة الجيدة المنتخبة من الرواد غالباً ما تأتي بعد الساعة العاشرة مساءً، وبعد هذه الساعة، كان يستطيع أن ينال بعض الراحة، فيقل الصخب، ويعم الهدوء، وترتاح المصابيح فتستسلم لمداعبة النسيم الهاب من جهة النهر. وبعد هذه الساعة أيضاً، كان دمث الأخلاق. . يلقي بالنكتة والحكمة والكلمة الجادة بروح مرحة شفيفة متفتحة. وقد كان صاحب المقهى ينهض واقفاً ومرحباً عندما يدخل:

ـ أهلاً بالأستاذ داود.

وقد سأله الأستاذ داود يوماً، وقد رآه يقرأ في جريدة تركها أحد رواد المقهى، عن تحصيله الدراسي، فأجاب:

ـ أنهيت الخامس الأدبي.

فسأله مستغرباً.

ـ ولم تجد لك وظيفة؟

فأجاب بانكسار:

ـ ما عندي من يوظفني.

فكتب له الأستاذ داود توصية، واستطاع أن يحصل على وظيفة..

ولم يصدق..

فقد حصل كل ذلك بسهولة وسرعة مدهشة!! ورفعت أمه يدها بالدعاء للأستاذ داود:

ـ اللهم احفظه وانصره وبارك له في زوجه وبيته وأولاده.

كيف يصدق؟!

أيستطيع هو.. أن يدخل إلى دائرة كبيرة محترمة فيجلس على كرسي أنيق وأمامه منضدة كبيرة نظيفة تلمع، وعليها سجل!

في الشعبة يجلس ملاحظ.. وملاحظ الملاحظ.. أو رئيس الملاحظ، أو رئيس الموظفين الخمسة!

لا شك أنه يحلم..

لا ركض.. ولا تعب.. ولا صخب.. ولا معاملة خشنة.. ولا عودة بعد منتصف الليل.

آه..

استمر أكثر من عشرة أيام دون أن يقوم بأي عمل.. كان ينظر إلى بقية الموظفين يتحدثون ويضحكون ويعلمون..

لابد أن العمل الذي يقومون به في غاية الصعوبة!

سمع الملاحظ يتحدث أكثر من مرة ويشكو من قلة الموظفين وكثرة

العمل!

وفي أحد الأيام، رأى موظفاً يقبل راكضاً وهو يقول:

ـ رئيس المؤسسة يفتش.. رئيس المؤسسة يفتش. هتف الملاحظ منبهاً السيد صباح الذي كان يجلس قريباً من الباب:

ـ افتح السجل.. وانشر الأوراق أمامك.

والتفت إلى سليم:

ـ افتح السجل وضع كتب الصادرة أمامك.

ـ لم يأتِ أي كتاب للصادرة بعد.

ضرب الملاحظ بيده على المنضدة.

ـ كم مرة.. كم مرة أطلب إليك أن تؤخر عدداً من الكتب إلى اليوم التالي.

ـ لدي عشرة كتب، ولكني صدرتها.

ـ ضعها أمامك.. فإذا جاء رئيس المؤسسة فمر على الرقم والتاريخ بالقلم كأنك تسجلها.

وقبل أن يلقي بتوجيهاته إلى كاتب الواردة.. أخرج هذا كمية من الكتب ألقاها أمامه، وفتح السجل وراح يكتب بيد متمرنة سريعة!. ونشر السيد محمود، الملاحظ، كمية كبيرة من الأغلفة، وراح يفتحها بعناية فائقة ويكتب في دفتر صغير.. أو يتظاهر بالكتابة في دفتر صغير!!

أقبل رئيس المؤسسة.. قصيراً، بديناً، أبيض، يضع نظارات سميكة على عينيه، وقطعة صغيرة لاصقة مدورة (بلاستر) على خده الأيمن. فألقى نظرة سريعة ثم خرج. ولكن السكرتير، بقي واقفاً.

سأل رئيس الشعبة:

ـ أين الموظف الجديد؟

فأشار إليه بيده.

ـ ماذا يشتغل؟

ـ إنه جديد.. لا يعرف.

ـ هل كلفته بعمل؟

ـ لا.. ولكن.. لا يعرف.

فهز يده ساخراً ومؤنباً:

ـ كيف يتعلم إذا لم تكلفه بعمل؟

فتردد رئيس الملاحظين، وسأله وكأنه يستعطفه:

ـ هل يستطيع أن يتحرى عن الكتب؟

ـ لم لا.. إنه خريج الدراسة الإعدادية..

ثم سجل شيئاً في دفتر صغير يحمله بيده، وخرج مسرعاً ليلحق برئيس المؤسسة.

نهض رئيس الشعبة، قصير القامة، قصير شعر الرأس نحيف الوجه حليق اللحية والشارب، صغير العينين. نهض واقفاً وبقي ينظر إلى خالد، ثم تقدم نحوه وسأله بصوت خفيض:

ـ هل تستطيع أن تتحرى؟

لم يدر بماذا يجيب..

لابد أن التحري مهمة صعبة للغاية!

ولكن السيد سليم هتف من مكانه:

ـ أنا أعلمه كيف يتحرى عن الكتب الصادرة.

فاعترض السيد مدحت كاتب الواردة:

ـ سيعمل معي.. يتحرى عن الكتب الواردة.

ولم يفهم شيئاً مما يدور حوله.. ولكنه شعر بالارتياح لأنه سيقوم بعمل معين.

ثم تدرج من التحري إلى كاتب صادرة، إلى كاتب واردة.. ثم نقل إلى الذاتية ليقوم بإصدار الأوامر الإدارية الخاصة بالإجازات الاعتيادية والمرضية للموظفين!

في هذه المرحلة من حياته الوظيفية جازف بشراء قطعة أرض، وقام ببنائها، وغرق في لجة الديون والهموم.. في الهروب من مواجهة الدائنين!! ولم يسدد ما عليه إلا بعد أن استنزف كثيراً من جهده ووقته وأعصابه وكرامته!!

وكان في منأىً عن الأحداث الكثيرة الرهيبة التي مرت بالعراق، والتي شاب لهولها الولدان!! الأحداث التي تحول النهار فيها إلى ليل والليل إلى ويل، وامتلأت العيون بالدموع، والقلوب بالأحزان، والبيوت بالآلام!! والتي وقف فيها الشاعر الحليم متردداً، متحيراً، متشككاً وهو يخاطب بلاده العزيزة:

بلادي هل تحررتِ؟ وهل....؟

أحقاً قد تحررت؟!!

.....

.....

ودخلت عليه مرة ثانية، وكانت تبدو عليها العجلة، وتتكلم بسرعة:

ـ أخي أستاذ في الجامعة الأمريكية. . يصل اليوم إلى بغداد. قال بتردد:

ـ في بيروت؟

فهزت رأسها مع حركة من يدها اليسرى التي تحمل منديلاً أبيض من الورق الخفيف:

ـ أستاذ في الجامعة الأمريكية. . في أمريكا.

التقطت نفساً سريعاً ثم أضافت:

ـ أما أخي عماد، فإنه مهندس، ذهب إلى ألمانيا للإشراف على مصانع السيارات هناك.

ـ ميكانيك سيارات؟

ـ مهندس سيارات. . ما رأيك. . إنه يريد أن يتزوج فتاة ألمانية.

ـ المهندس عماد؟

ـ لا. . الأستاذ زهير. .

ثم ضحكت، ومسحت فمها بالمنديل الورق وأضافت:

ـ الأمريكان يحبون الألمانيات.

ثم رفعت يدها كأنها تحية:

أنا ذاهبة إلى المطار. . (أو. . كي)؟

وخرجت قبل أن تسمع الجواب. . ولم تكن بحاجة لأن تسمع الجواب! فقد أدارت رأسه وتركته يتصور مركز عائلتها. . !

أخوها أستاذ في الجامعة الأمريكية. . في أمريكا! والآخر مهندس يشرف على مصانع السيارات. . في ألمانيا. ولا بد أن يكون لها أخوة وأخوات كلهم على هذا المستوى أو أكثر!!

فماذا يكون أبوها؟!

رأى نفسه ينشغل بها..

لم تدخل إلى قلبه.. ولكنها دخلت إلى عقله.

امرأة بهذه القابلية والحركة والذكاء والمركز.. لابد أن تكون عظيمة..

وذكرها لأمه..

فأصغت إليه ساعة.. ثم قالت:

ـ العاقل من مدَّدَ على طول غطائه!

فتبسم كالساخر والمحتج وقال:

ـ لا بد أن نخرج إلى الدنيا.

كانت التقارير المتلاحقة ترفع عنها:

تهمل واجباتها..

تأتي متأخرة..

تقضي أوقات الدوام في زيارة الموظفات.. والأكل وشرب الشاي.. وكان يحاول أن يغض الطرف. ولكن الموظف المسؤول عن الدوام قال:

ـ لابد من إنزال عقوبة صارمة بحقها.

وفكر في الأمر..

إن كثيراً من الموظفين قد عوقبوا على أقل من هذه المخالفات فإذا سكت.. فقد يفتح على نفسه باباً للتقولات!! لذلك تمطى في كرسيه، وأظهر شيئاً من الصرامة والجدية.. واصطنع الغضب.. وضرب على المنضدة بقوة وهو يقول:

ـ دعها تواجهني . .

وحاول أن يهيء نفسه وجلسته، وأن يعد كلاماً جيداً قوياً يواجهها به .

سيقول لها . .

وفتح الباب بقوة . .

ودخلت كالعاصفة . .

ـ أرأيت كيف يعامل الموظفون في هذه المؤسسة . .

إن الموظف المسؤول عن الدوام هذا . . لا يعرف واجبه . .

إن الموظفين قد ارتاحوا عندما صرتَ مديراً للإدارة . . ولكن هذا . .

وراحت تتكلم بقوة وسرعة . . وتغير وضع المدير وراح يعتذر ويعتذر وهي ترد وتهدد الموظف الصغير الذي وقف مندهشاً متلعثماً متهماً لا يدري كيف يتخلص من ورطته!!

ثم تركت الغرفة . .

وتركت عطرها وشخصيتها تعمل في رأس المدير!!

لا يستطيع أن يقول أنه أحبها . . ولكنه وجد نفسه . . بلا تفكير . . وبلا مقدمات . . يقول لها عندما جاءت تطلب السماح لها بالخروج من المؤسسة لفترة قصيرة:

ـ أريد أن أرسل أمي لزيارتكم .

نظرت إليه نظرة فاترة محيرة لم يدر كيف يفسرها، ثم ضحكت وقالت بصوت خفيض:

ـ أهلاً وسهلاً .

فاضطرب قليلاً. وأح أح.. وقال:

ـ فانت توافقين؟

ـ على ماذا؟

ـ على زيارتكم..

فاستدارت بثوبها البني مع ضحكة مقطوعة، مع نصف التفاتة:

ـ أهلاً وسهلاً.

فنهض واقفاً وهو يضيف:

ـ اليوم.. بعد العصر.

ولم تغير من وقفتها، بل راحت تنظر إليه وكأنها تحاول أن تزن مقدار الاستفادة منه:

ـ أهلاً وسهلاً..

ثم خرجت..

جلس بعد ذلك يفكر..

هل كاد جاداً فيما قال؟

هل كان مصمماً حقاً على الزواج منها؟

ولم ينتبه إلى دخول فتاة (بسيطة) فقيرة، بثوب طويل عفيف فقير بالألوان..

بأكمام طويلة تصل إلى الرسغين..

شعر مهمل ووجه صغير نحيف أسمر..

بلا أصباغ.. بلا رتوش!!

انتظرت الفتاة قبل أن تقول:

ـ أستاذ.. أين أباشر؟

رفع رأسه إليها وردد:

ـ أين تباشرين؟

ـ نعم أستاذ. . أنا الموظفة الجديدة.

ـ أنتِ. .

ـ حميدة.

فضحك، ورفع يده إلى جبهته يفركها:

ـ تذكرت . . أي مكان يناسبكِ؟

ـ أنت تعلم يا أستاذ.

تناول الأوراق التي في يدها. . وقلبها دون أن ينظر إلى صورتها وقال:

ـ اذهبي إلى الأوراق.

ـ ما هي الأوراق يا أستاذ؟

ضحك مرة ثانية دون أن يرفع إليها رأسه وقال:

ـ اذهبي إلى الذاتية. . ستقومين بإصدار الأوامر الإدارية بالإجازات الاعتيادية والمرضية.

ووقع بذلك وسلمها الأوراق. .

فأخذت الأوراق وهي تقول:

ـ شكراً.

وقبل أن تخرج التفتت وقالت:

ـ هل أنت مريض يا أستاذ؟

ـ أنا؟

ـ معي حبوب لوجع الرأس.

وأرادت أن تفتح المحفظة الصغيرة التي تحملها. . فأشار إليها، وكأنه يدفعها بظهر كفه، وهو يكرر عبارته:

ـ اذهبي إلى الذاتية.

ثم أرسل أمه. . وكان قد اشترى لها ملابس جيدة، وعباءة جديدة، وفوطة ممتازة. .

وعادت أمه فقالت:

ـ لو رأيت غيرها.

ـ لماذا. . ماذا بها؟

ـ لا أدري. . ولكن.

ـ هل هي قبيحة؟

لا. ولكن. .

ـ أخبريني يا أمي. . أخبريني. .

ـ فتبسمت أمه وقالت:

ـ إذا كانت تعجبك. .

ـ إنها تعجبني.

لم تسرع دقات قلبه. . لم ينفتح صدره. . لم. . لم يرد أن يعرف رأي أمه الصريح!!

بل لم يترك لها المجال لتفصح عما في نفسها!

ثم ذهب مع صديقه محمود، مدير الحسابات، لزيارة أهلها في المنصور. في شارع داخلي عريض خالٍ من الأشجار، مقابل بيت الحاج كمال الدين العطار مدرس اللغة العربية.

في الشارع كانت تقف سيارة سوداء قديمة انشغل أربعة صبية مع

أبيهم في غسلها بالماء والصابون، وامرأة بدينة كانت تدفع طفلاً في عربة، وعلى مسافة ليست بعيدة كان ثلاثة أطفال يلعبون كرة القدم. ومن جهة الأطفال أقبل رجل محني الظهر، في الستين من عمره، يحمل كيساً من (النايلون) انتفخ بالتفاح. استوقفه السيد محمود وسأله، وهو يشير بيده إلى باب عريض أبيض لا يزيد ارتفاعه عن الأرض عن متر واحد:

ـ هل هذا بيت الآنسة عايدة؟

وقف الرجل يتفحص الاثنين.. كان يرتدي قميصاً أسمر وسروالاً قديماً حنطي اللون، وكان حليق اللحية، قصير الشارب، تتزاحم على الجانب الأيمن منه شعرات سوداء.. أما بقية الشارب فإنه أبيض.

أعاد السيد محمود السؤال:

ـ هل هذا بيت الآنسة عايدة؟ لها أخ اسمه زهير وآخر اسمه عماد.

تحركت شفتا الرجل وهو يهز رأسه بكلام لم يتجاوز صوته شفتيه. ثم دفع الباب الذي أشار إليه السيد محمود ودخل. وبعد لحظات، أقبلت امرأة شقراء طويلة شطبة، بصدر عريض وشعر أحمر يبدو كالمنفوش، بعينين زرقاوين ووجه أحمر وقامة قوية متينة مسيطرة!

ـ أهلاً.. أهلاً.. تفضلا.

ومدت يدها تصافحهما..

كانت ترتدي ثوباً طويلاً شامياً بأكمام عريضة، مطرز بخيوط ذهبية على لون أسود مزرق.. وكانت الأسورة الذهبية أو الذهب، كما

تبدو، التي تطوق معصميها، توسوس عندما تتحرك يدها!

كانت الحديقة تحتل أكثر من نصف الأرض.. تحتل الجنب الأيمن منها والواجهة الأمامية. وقد تراجع البيت إلى مساحة صغيرة محتلاً الجهة الخلفية اليسرى! في الحديقة توجد أرجوحة قديمة مهملة، علاها الصدأ وبدت مائلة إلى الخلف كأنها توشك على السقوط.

تقدمت السيدة، يتبعها السيد محمود فالسيد خالد. كان السيد خالد متزيناً متأنقاً متعطراً. خجلاً. متردداً. مرق من جانبه صبي تجاوز العاشرة من عمره، مرَّ راكضاً، ثم وقف واستدار ينظر إلى الضيفين، ثم صرخ (كالمخروع):

ـ بابا..

وانطلق إلى الداخل..

التفتت السيدة، وهي تبتسم، وقالت:

ـ إنه إياد.. آخر العنقود.

انحنى السيد محمود فقطف وردة حمراء وضعها على صدره ثم تابع سيره خلف السيدة.. وقبل أن يجلسا، وقف يقدم صديقه بحركة مسرحية بارعة:

ـ الأستاذ خالد عبدالمجيد الصالح.. مدير الإدارة والذاتية في مؤسستنا.

طأطأ السيد خالد رأسه، وغض بصره، وشعر بالامتنان الكبير للسيد محمود الذي لم يذكر لقبه الصحيح.

أشرق وجه الوالدة، ورددت متسائلة:

ـ الصالح؟ . . لقب العائلة؟

وأكد لها بنفس الحركة المسرحية البارعة:

ـ نعم كان أبوه رحمه الله من كبار المقاولين في بغداد، أشرف على بناء عمارة الدفتردار.

ورددت أيضاً:

ـ عمارة الدفتردار . . في الباب الشرقي؟

ـ لا . . عمارة الدفتردار في بداية شارع النهر، تطل على دجلة. بل تطل على بغداد بكاملها!

وأقبلت عايدة، فصافحت السيد محمود:

ـ أهلاً وسهلاً بالأستاذ محمود.

ثم التفتت إلى أمها قبل أن تترك يده:

ـ مدير الحسابات في المؤسسة.

ثم مدت يدها فصافحته دون أن تقدمه إلى أمها.

كانت ترتدي ثوباً أصفر، حجب كل ما كانت تريد أن تظهره من جمال! في أذنيها وضعت قرطين يلمعان على ضوء الثريا المتدلية بمصابيحها الخمسة من سقف الغرفة، وقد حلت صدرها بقلادة تشبه حباتها حبات المسبحة الصفراء. . ثم انسحبت بسرعة. . تاركة المجال لأمها. . وهي تقول:

ـ سأقدم لكم شيئاً.

لكنها عادت بسرعة وهي تحمل علبة حلويات (بقلاوة) كانت في الثلاجة. . فضحك السيد محمود وهو يملأ فمه، وكان يرتدي أسمر، قصير شعر الرأس، حليق اللحية والشارب، يرتدي بدلة

رمادية مخططة، ورباط عنق أزرق، ويضع الوردة الصغيرة الحمراء التي كان قد قطفها من الحديقة على صدره. قال وهو يضحك:

ـ أرجوك.. أرجوكِ.. أخرجيها من الثلاجة قبل أن تجمد.

فضحكت الأم، وضحكت عايدة ثم انسحبت بعد أن تناول السيد خالد قطعة صغيرة وهو يقول:

ـ هذه تكفي.

ـ ثم سألت الأم:

ـ كم يبلغ راتب الأستاذ؟

وأشارت إلى السيد خالد.

فأسرع السيد محمود:

ـ مائة دينار.. الراتب الاسمي فقط.

فهزت رأسها:

ـ ممتاز.

ثم سألت:

ـ هل تملك سيارة؟

وأسرع السيد محمود يجيب أيضاً:

ـ قبل أن نأتي إلى هنا، مررنا على معرض للسيارات، فلم نجد السيارة المناسبة. إنه يريد مرسيدس أو شوفر.. وقد رفض أن يشتري سيارة فكسل ممتازة.

فقالت مصححة:

ـ فوكس هول.

ـ نعم؟

ـ فوكس هول.

فنهض من مقعده.. وأشار إليها بيده.

ـ كيف عرفت.. هل كنت هناك؟

وتركها تغرق في الضحك بينما التفت إلى السيد خالد:

ـ هل رأيتها في المعرض؟

كان السيد خالد، جالساً عاقلاً وديعاً لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة! وكانت السيدة تنظر إليه بين آونة وأخرى.. تتفحصه جيداً.. كان كلما شعر بنظراتها تتوجه إليه انكمش وطأطأ فلم يرفع رأسه إلا بعد أن تحول نظراتها عنه! وكان يتعجب مع نفسه، كيف يستطيع السيد محمود أن يتكلم بهذه الطلاقة واللباقة والقابلية! وكيف يلقي بالنكتة والكذبة والإشارة والحركة بلا تكلف ولا تردد ولا مبالاة!!

أقبلت عائدة تحمل أربعة أكؤس من عصير الرمان في صينية معدنية بيضاء مستطيلة لامعة.. وكانت قد حلت يدها اليسرى بساعة صغيرة. فنهض السيد محمود، ومد يده قبل أن تصل وهو يقول:

ـ اسقنيه.. بأبي أنت وجدي.. وبعمي وبخالي.. ثم بنتي وتناول كأساً رفعه إلى فمه ثم رشف منه وقال وهو يتلمظ:

ـ منذ ألف سنة وأنا لم أشرب مثل هذا العصير.

تناولت الأم كأس العصير، ورفعته قليلاً، كأنها تستعد للكلام.. ثم قالت:

ـ مكانة الرجل في زماننا تتحدد بأمور ظاهرة..

قطعها السيد محمود:

ـ نعم..

لكنها مضت تقول:

ـ مكانة الرجل.. في البيت الذي يسكنه، والسيارة التي يملكها، والملابس التي يرتديها.. ثم.. قاطعها السيد محمود:

ـ ثم.. سليني أنا عن ثم..

ـ في الرصيد الذي يدخره في البنك.

فتح محمود يديه بعد أن وضع القدح الفارغ أمامه:

ـ لديه ثلاثة آلاف دينار في البنك.. والبيت الذي يسكنه لا يضاهيه أكبر قصر في هذه المنطقة.. أما ملابسه.. انظري..

وأمسك بطرف (الجاكيت):

ـ إنها بضاعة أجنبية!

في الكلمة الأخيرة لم يكذب السيد محمود.. إنها بضاعة أجنبية.. ولكنها مستعملة!.. اشتراها من تحت التكية بستة دنانير من محلات (دوماد أند أوبيد) كما يسميها السيد عبداللطيف البصري دون أن ينطقها باللغة العربية.. محلات ضمد وعبيد!!

وسيطر محمود بحديثه وإشاراته ودعاباته على الأم، فسألته:

ـ هل أنت متزوج؟

أجاب بسرعة:

ـ هل لديك بنت أخرى؟

فضحكت.. وقالت:

ـ الكبيرة متزوجة زعيم شرطة.. والثانية متزوجة من تاجر كبير يستطيع أن يشتري بغداد بكاملها.

صفق محمود بيده، ونهض واقفاً وهو يصيح:

ـ عرفته. عرفته.. إنه هارون الرشيد.

فعمت موجة من الضحك، جعلت الأخ الصغير إياد، يطل كالخائف، بوجهه النحيف الطويل، وأنفه المائل إلى الشمال، وشعره الأصفر البسيط.. ثم ينسحب بسرعة!

وطرق الجميع شتىٰ المواضيع، ليس من بينها موضوع الزواج، وعندما خرجا شدت الأم على يد السيد محمود وقالت:

ـ لابد أن تزورنا مرة ثانية.

فأجاب:

ـ طبعاً.. مع الأستاذ مدير الإدارة والذاتية.

وعنما احتواهما الطريق، راح خالد يعاتب محموداً على تسرعه ومبالغاته. ولم يكترث محمود لعتابه، وإنما قال:

ـ كذبوا علينا فكذبنا عليهم.. والبادي أظلم.

ولم يفهم منه شيئاً..

فسكت على مضض!

واستطاعت أمه أن تقرأ آثار الهزيمة في عينيه.. ولكنها لم تفصح عما في نفسها. ثم حدث أمه بما قال محمود فقالت:

ـ لا.. لابد أن يعرفوا عنك كل شيء.. الراتب لا يتجاوز الخمسين ديناراً، وليس لديك رصيد في البنك، ولا تستطيع أن تشتري سيارة في الوقت الحاضر!!

كانت عايدة قد تحرت عنه أكثر مما يظن.. فعلمت أن راتبه خمسون ديناراً، وأنه لا يملك رصيداً في البنك ولا في التوفير.. وأنه لا يستطيع أن يشتري سيارة ولا..!! ولكنها كتمت كل ذلك.

ثم تزوجها..

وقضى الشهر الأول الذي تطلق عليه الأقوام الأخرى شهر العسل، بعد أن استلف مائة وخمسين ديناراً، وسافر إلى الشام، وإلى لبنان.. وتغير عليه الهواء والطعام، واشتاق إلى بيته وأمه ودائرته.. إنه يسافر لأول مرة.!

أول مرة يترك فيها بلده الحبيب.

ثم عاد..

.....

وأقبل المهنئون..

كان يود أن يستقبلهم وحده..

ولكنها خرجت، بكل زينتها.. بل بشكل لم يرها مثله منذ تزوجها!! وراح يصافح الأيدي التي تمتد إليها أولاً ثم تتحول إليه..

كان يحاول أن يبدو متطوراً عصرياً متفتحاً كما يريد عصره، أو كما تريد هذه الطبقة من الناس!!

وأقبل حمدي.. رجل يجيد الكلام والتصرف في كل موقف. ومعه جودي.. الموظف الطويل الأسمر الذي خان أقرب الناس إليه.. قريبه!!

وامتدت يد جودي إليه بعد أن صافحها، وقال وهو يضحك:

ـ هنيئاً بالعسل يا مدير العسل!

لم يرها بمثل هذا الانطلاق والضحك وطرح الاحتشام إلا في بقين مرة وفي بلودان مرة ثانية. أما في بيروت فقد أرادت أن تنطلق على الروشة، فرأت مجموعة من الناس يقفون، يطلون على الخليج

الصغير الذي ترتفع من وسطه صخرة الموت. كان الناس يشيرون بأيديهم إلى الخليج..

ونظرت..

ونظر هو أيضاً..

فرأى فتاة ترتدي ثوباً أبيض، قدألقت نفسها من شاهق ورقدت جثة هامدة على الخليج! وقد تركت حقيبتها، وفيها رسالة تذكر فيها تعاستها وشقاءها واضطرارها إلى الانتحار!!

كانت تضحك لكل نكتة يلقيها جودي.. أو سمير ملاحظ الأوراق في المؤسسة. وكان ينظر إلى عيني جودي التي تلهث وراءها، والدم يغلي في عروقه..

ماذا يفعل؟

أيطرده؟

أيصرخ به..؟

لا.. عليه أن يرضي ويداري وينافق ويدوس كرامته وغيرته.. و!! وانصرفوا..

وأراد أن يلقي عليها درساً أعد كلماته إعداداً جيداً.. ولكنها فاجأته بقولها:

ـ لم أر في حياتي رجلاً تافهاً كهذا.

ـ من؟

ـ جودي..

أراد.. بل تمنى لو استطاع أن يغور إلى إعماقها ليتبين موضع الصدق فيما تقول:

ـ ماذا يظن نفسه؟.. كلنا نعلم أنه يشتري الملابس المستعملة ثم يرسلها إلى الغسل والتشحيم ثم يلبسها!

ـ الغسيل والتشحيم؟!

فضحكت، وهي تزيح الورقة عن قطعة من الحلوى وتضعها في فمها:

ـ نحن الموظفات، نعلم كل شيء عنكم أيها الرجال.. كل شيء.. إنه يشتري الملابس من الباب الشرقي..

وأتت بحركة من يدها تشير إلى محلات بيع الملابس المستعملة ثم مضت:

ـ ثم يرسلها للغسل والكي.. ثم يلبسها على أنها جديدة ومستوردة!

ثم ضحكت..

وضحك معها بعد أن بلع ريقه..

واحتفظ لنفسه بالدرس الذي أراد إلقاءه عليها!!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٨ ـ النَّدَم...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

أُستاذ . .

أستاذ . .

أستاد خالد . . .

رفع رأسه كالذي ينتبه من حلم كريه كريب مزعج .

ـ هل أنت مريض يا أستاذ؟

أين رأى هذه الفتاة؟ . . كيف دخلت دون أن يشعر بها؟ شعر أسود لامع ، وثوب أبيض ناصع ، وتنورة بلون البن .

ـ هل أنت مريض يا أستاذ؟

وجه يحمل الكثير . . الكثير من معاني الطهر ، والبراءة والصفاء بعينين لوزيتين تظللهما أهداب طويلة سوداء . بلا (رتوش) بلا مساحيق ، بلا (مكياج) .

أنا الموظفة الجديدة التي . .

أشار بيده وهو يبتسم :

ـ تذكرت . . ولكن . .

وأشار بيده إلى ملابسها .

ـ رئيس الشعبة يا أستاذ منعني . . قال يجب أن ترتدي كما يرتدي بقية البنات .

ـ ماذا تريدين؟

ـ يومين فقط .

ـ تريدين يومين؟!

ـ إجازة اعتيادية .

ـ لماذا؟

ـ أريد أن أكون إلى جانب أمي في البيت

إنها مريضة.

ـ هل . . هل مرضها شديد؟

ضربت بيدها على صدرها:

ـ أعوذ بالله . .

ـ أنتِ تقولين إنها مريضة.

ـ حرارتها مرتفعة يا أستاذ.

ـ لا حاجة إلى الإجازة إذن.

ـ لماذا يا أستاذ. . إنها أمي.

ـ أيجب أن تكوني إلى جانبها؟

ـ نعم يا أستاذ.

تناول الورقة من يدها وكتب عليها: موافق.

ـ أشكرك. .

ستدعو لك أمي بالشفاء.

ـ لست مريضاً.

ـ فأنت مهموم إذن. .

ما الذي أهمك يا أستاذ؟

كانت تتحدث على سجيتها. . بلا تكلف، بلا أقنعة بلا زيف!

ما الذي أعماه عن هذا الطهر. . هذا الصدق. . هذه. . هذه. . هذه الفتاة؟!

غض بصره، وسأل:

ـ أنت حليمة؟

ـ حميدة يا أستاذ. . اسمي حميدة.

ـ نعم تذكرت. . أنت حميدة.

ـ أمي تناديني حمدة.

رفع يده إلى جبهته كأنه تذكر شيئاً:

ـ أظن أنني قرأت قصة بهذا العنوان: حمدة. قرأتها في مجلة. . في جريدة. .

ـ أنا قرأتها أيضاً يا أستاذ. . كتبتها طالبة كانت معي في المدرسة اسمها ناهدة.

فتبسم مرتاحاً، وخفض رأسه ينظر في الأوراق التي أمامه. لقد كان أعمى عن كل ما يدور حوله!. . كان يريد أن يقفز إلى مستوى أولئك الناس، فلما خالطهم، علم بعد فوات الأوان أنه باع أغلى بأدنى!!

عادت الفتاة تقول:

ـ أمي تقول: إذا لم تقطع الهم قطعك.

سألها دون أن يرفع رأسه:

ـ كيف يقطع الهم؟

ـ بقطع أسبابه.

ـ فإذا كانت أسبابه راسخة؟

ضربت على صدرها مرة ثانية، وهتفت متوجعة:

ـ ساعدك الله يا أستاذ.

فضحك وهو يرفع رأسه وقال:

ـ إنما كنت أسأل.

لا . . لم يكن يسأل . . بل كان غارقاً في الهموم إلى أذنيه بل فوق أذنيه! يوماً بعد يوم أخذ يكتشف أنه تزوج التعاسة والقباحة والوقاحة والشقاء!!

إنها نسخة من أمها التي جعلت زوجها ظلاً بلا جسم!! الحكمة الذهبية التي تعلمتها من أمها . . أن تتزوج الرجل الغني الضعيف الذي تستطيع أن تحكمه . . أن تقوده . . أن تجره من أذنيه إلى حيث تريد!! وقد وجد نفسه يلين في يدها . . وتنال أمه نصيبها من السب والشتم والإهانة!

لم تقل له يوماً أمك . . كانت تقول: هذه!!

ولم تقل لولدها: جدتك . . ولم تعلمه كلمة: جدة!!

كان كلما أراد أن يبحث الأمر معها ثارت في وجهه، وصرخت ثم تترك البيت والطفل وتذهب إلى أمها!

وفي غيابها . . كان يتمتع بالراحة التامة . . والهدوء . . والحنان الوفير من أمه!

كان يحاول جاهداً أن يصبر . .

أن يدعها ترضخ من تلقاء نفسها وتعود . .

ولكن الأمر كان ينتهي على عكس ما يريد!

كان هو الذي يرضخ!

يذهب إليها . . ويعتذر . .

وتثور أمها في وجهه . . ويعتذر . .

ويتحمل كلاماً كثيراً مهيناً . . ويعتذر .

ويعتذر . .

ويعتذر . .

ثم يعود بها معززة مكرمة . . منتصرة!!

ويعود مكسوراً مغلوباً . . مسلوب الإرادة!!

صار ينظر إلى والده الذي لم يبلغ السنة والنصف من العمر ويتوقع له مصيراً مثل مصير خاله الصغير . .

النحيف . .

الضعيف . .

المهزوز!!

وصار يتوقع لنفسه مصيراً مثل مصير أبيها!!

. . . . . .

. . . . . .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٩ ـ الفَـــخ...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ماذا سيكون مصير أمه إذا لم يخرج من المصعد؟!
ماذا سيكون مصيرها إذا مات؟
ستلقي بها إلى الشارع.
إنه أخطأ عندما سجل البيت باسمها..
يا للأحمق..
لو سجله باسم أمه لكان أفضل.
حياته كلها أخطاء.
من أجل أمي يا رب!!
إذا أغرقتني ذنوبي.. وأثقلتني إلى القعر.. فأسباب رحمتك لا تتخلى عني.. يا رب.
أنت ترحم الكافر والفاجر والجاحد والفاسق..
يا رب العالمين..
من أجل أمي يا رب..
من أجل أمي التي تعيش حياة بئيسة تعيسة حبيسة في بيت الظلم!!
من أجل أمي يا رب..
يا رب.. يا رب..
.....
.....
كيف سجل البيت باسمها؟
لماذا سجل البيت باسم زوجته؟
عندما ذهب إلى أهلها مع صديقه محمود، ليتكلم في المهر

و(ترتيبات) الزواج، استقبلتهما أمها كالعادة، وكانت معها جارتها التي تقل عنها في في عدد الحلي التي تتزين بها، وكانت أصغر منها سناً. . وقد بدت الجارة رقيقة دمثة مهذبة، يتضرج وجهها حياءً! كانت عيون الغزال تسترق النظر إلى السيد محمود الذي راح يتحدث على سليقته بكل ما يخطر على باله. وكانت الأم قد انسحبت إلى المطبخ لتقدم شيئاً. .

قالت الصديقة بعد قليل من الصمت:

ـ حدثتني مروج عن الأستاذ محمود خطيب عايدة. . فقاطعها محمد نافضاً يديه:

ـ الأستاذ خالد عبدالمجيد الصالح مدير الإدارة والذاتية في مؤسستنا، خطيب الأستاذة عايدة. .

أما أنا. .

وأشار إلى صدره.

ـ فلم أفكر بالزواج بعد.

ـ لماذا؟

ـ يا أستاذتي العزيزة.

ـ أحلام.

ـ نعم؟

ـ اسمي أحلام.

ـ يا أستاذتي أحلام. . يا أميرة الأحلام.

فضحكت بسرور وقد تضرجت خدودها بحمرة ملتهبة. .

ـ أنا لا أملك بيتاً ولا سيارة ولا رصيداً في البنك ولا في صندوق

التوفير.

أنا أصرف راتبي من أول الشهر.. ثم أبقى أستدين وأستدين إلى نهايته.

فأي امرأة ترضى بأن يكون زوجها صفر اليدين.. لا ماء ولا شجر؟!

ـ إن المرأة التي لا ترضى بالرجل لأنه رجل ليست امرأة!

نهض السيد محمود وهو يرفع يديه إعجاباً!

ـ الله.. الله.. الله.. هذه البلاغة..

فزادت حمرة خديها التهاباً، وقالت وهي تغض الطرف:

ـ هل تقرأ كتب الرافعي؟

ـ هل تقرئينها؟

ـ نعم.

ـ لا.

ـ فأنت تقرأ الأدب العالمي.

ـ أنا أستمع إلى حكايات أمي.. (الحجية) ماهية، عن حسين النمنم وقوج حصان وقمر الزمان والملكة بدور.. و..

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أنا أسمع كثيراً، ولكني لا أقرأ إلا قليلاً.. في المساء، وبعد الساعة العاشرة، نجتمع في مقهى صغير، في الأعظمية، قرب الجسر. الأديب والفنان والشاعر وقارىء المقام.. وليد الأعظمي، وشعيب إبراهيم، وعبدالكريم العاني.. و.. أما وليد.. فإنه خزانة العلم والفقه والسيرة والأدب والشعر والقصة والنكتة واللمحة.. إنه..

ـ أنا رأيت وليد مرة.. عندما كنت صغيرة، كان أبي يأخذني معه إلى الاحتفالات التي كانت تقام.. سمعته يلقي قصيدته الرائعة.. إنا بغير محمد لا نقتدي.

ـ أهذا مطلع القصيدة؟

ـ إنه الشطر الثاني من البيت الأول.

إذا أردت أن تستمتعي بشعر وليد، فلا تقرئيه في ديوانه.. اسمعيه من فمه.. من روحه.. من مشاعره إنه يصب روحه في القصيدة، فيبعث فيها الحياة!

ثم قطع حديثه فجأة، وتلفت يمنة ويسرة، وصاح بأعلى صوته:

ـ أين الأستاذة عايدة؟

فأقبلت أمها تحمل أكؤس العصير في صينية من البلور وهي تقول:

ـ جارتنا الحاجة أمونة زوجة الحاج حميد السامرائي سائق القطار مريضة.. ذهبت لزيارتها.. ستعود حالاً.

نهض السيد محمود، وسار نحوها بسرعة مادا يديه!

ـ لا يا عمتي العزيزة.. لا.. نحن نخدمك.

كيف يستطيع السيد محمود أن يتصرف بهذه السرعة وهذه اللباقة! كان خالد يشعر بالانحسار والانكسار والهزيمة، كان محمود فارس الحلبة بلا منازع!.. كان يلقي بالنكتة والحكمة وبيت الشعر والمثل والقصة القديمة مهما كانت فقيرة وساذجة، ولا يتردد في القاء الكلمة القبيحة إذا جاء دورها! كل ذلك وخالد يبتسم ويحاول أن يداري ما به الصمت.. إنه الدواء الناجح في مثل هذه الحال!!

نهضت أحلام تجمع الأقداح الفارغة. . كانت ترتدي ثوباً أخضر. . يزيد وجهها الأزهر المدور إشراقاً وجمالاً. . تصل أكمامه إلى الرسغين، طويلاً. . إلى الكعبين. حملت الصينية وذهبت بها نحو المطبخ، فتبعتها أم عايدة وهي تقول:

ـ عن اذنكم.

وبعد قليل التفت محمود وقال هامساً:

ـ ذهبتا تخططان.

ـ ماذا تخططان؟

ـ تتقاسمان الغنيمة.

هز خالد رأسه:

ـ لم أفهم.

ـ أنا وأنت صيد ثمين وقع في أيديهما، فذهبتا تتفقان على قسمتنا. . أنت لبنت هذه وأنا لبنت أحلام.

نظر إليه خالد نظرة محيرة جعلت محموداً يصرخ:

ـ مالك؟

ـ أتظن أن أحلاماً من السن بحيث تنجب بنتاً تتهالك على. .

قاطعه محمود قبل أن يتم عبارته:

ـ إنها أكبر مني.

ـ بسنة أو سنتين. .

ـ أتعني أنها. .

ـ ليست متزوجة.

ـ ماذا تخفي وراء هذا السكوت أيضاً. . وأنا الذي أقول إنني أستطيع

أن أقرأ المرأة من رأسها إلى قدمها من نظرة واحدة!!

امتلأ السيد خالد سروراً وغروراً، ولكنه ظل ينظر إلى محمود نظرة الحكيم الحاذق الذي يدرك الأسرار قبل إذاعة الأخبار!

ولما عادت المرأتان، نهض السيد محمود واقفاً وهو يقول:

ـ إنها مؤامرة.. أخبراني بكل ما دبرتما.

فضحكتا بسرور، وقالت أم عايدة:

ـ نريد أن نزوجك.

التفت إلى السيد خالد:

ـ انظر... ألم أقل لك.. إنها مؤامرة..!

ثم حولَّ نظره إليهما:

ـ أنا جئت أخطب يد ابنتكم الأستاذة النبيلة الجميلة عايدة، لأخي وصديقي وأستاذي الفاضل خالد عبدالمجيد الصالح.

ـ تخطب لصديقك وتخطب لنفسك

ـ بل قولي: أخطب لصديقي وتخطبين لي.

ـ نعم.

ـ فأنتِ تريدين أن تزوجيني بنت الأميرة أحلام.

ـ هِـ ء!!

ندت من المرأتين صرخة احتجاج.

ـ إذن.. من المرأة الغبية التي ترضىٰ أن تتزوج رجلاً لا مال ولا جمال؟!!

نظرة سريعة محيرة تبادلت المرأتان، ثم ساد سكون لفترة ليست وجيزة، كان خلالها السيد محمود ينقر فيها بأنامله على الطاولة التي

أمامه.

ثم تكلمت أم عايدة قاطعة حبل الصمت:

ـ بل هي ذكية وغنية وجميلة.

ـ وتقبل بي؟

ـ توفي عنها زوجها وخلف لها..

ـ مال قارون؟

ـ تقريباً.

ـ لا أريدها.

ـ لماذا؟

ـ لا أريد أن أتزوج المرأة لمالها.. أريد أن أتزوجها لأخلاقها.. لسيرتها العطرة، لعفتها، لمنبتها الكريم.. وأريد أن تقبل بي كما أنا.. محمود ابن (الحجية) ماهية يسكن الأعظمية، قرب جامع بشر الحافي..

دعينا من هذا الآن..

أرجوك..

نريد أن نحدد المهر..

أين أبوها؟

تحركت أم عايدة بسرعة، وأشارت بيدها:

ـ هذه عايدة قد أقبلت.

دخلت عائدة فقالت:

ـ مساء الخير..

ثم مضت تتكلم بسرعة:

ـ كنت عند جارتنا السيدة زينب . . إنها رائعة رائعة . .

ومضت تتحدث بسرعة وإعجاب كيف إنها . . وإنها . . وإنها . .

كانت ترتدي ثوباً كالذي ترتديه المذيعة في التلفزيون في أخبار الساعة الثامنة . . وكانت تحمل بيدها منديلاً من الورق الأصفر . كانت تبدو نشطة مسرورة متفائلة!

جلست إلى جانب الضيفة، ووضعت رجلاً على رجل!

عاد السيد محمود يقول:

ـ كنا نريد أن نحدد المهر .

اعتدلت الأم . . وقالت، وكأنها تتم حديثاً بدأته:

ـ أنتم تعلمون أن الأسعار قد ارتفعت . . هذه المجموعة من الأرائك كلفتنا ألف دينار، وهي كما ترون ليست كما ينبغي! إن مبلغ المهر يجب أن يسد الحاجة ويملأ عيون الناس .

تبسم السيد خالد وقال:

ـ اطلبي يا (عمة) . . كما تشائين .

أشارت معترضة:

ـ أنا لا أحب كلمة (عمة) هذه . . نادني باسمي: مروج

ـ كما تشائين .

وبادر محمود يقول:

ـ كما تشائين يا عمتنا العزيزة .

فضحكت أحلام وقالت:

ـ دعها مع خطيب ابنتها .

مضت أم عايدة تقول:

ـ اتفق أغلب الناس على أن يطلبوا المهر المقدم أقل من المهر المؤخر.

ـ هذا صحيح.

ـ أنا أطلب العكس.

بسط خالد يده:

ـ إنك لم تطلبي بعد!

ـ أنا أطلب.. كما زوجنا بنتي قبلها.. خمسة آلاف مقدماً وثلاثة آلاف مؤجلاً.

هتف محمود كالمجنون:

ـ كم؟!!

ـ ماذا؟..

أنا قلت بوضوح: خمسة آلاف وثلاثة آلاف.

ـ ولكنه ليس زعيماً في الشرطة ولا هارون الرشيد!

ـ إنه يملك بيتاً وله ثلاثة آلاف دينار في البنك ويريد أن يشتري سيارة!!

ـ هل يبيع بيته؟

ـ لا.. أنا لم أقل هذا.

ـ من أين يأتي بالآلاف الخمسة؟

ـ يستطيع أن يؤجل المسألة إلى أن يتوفر لديه المال.

فتدخلت أحلام قائلة:

ـ ليس الأمر كذلك.. ولكني أقترح حلاً.. لعلكم توافقون.

ـ تكلمي.

ـ أقترح أن يكتب البيت باسمها.. إنه يعوض عن المهر كله.. معجلة

ومؤجلة.

ماذا قلتِ؟

ـ القول للأستاذ خالد.

ـ لماذا البيت؟

ـ إذا كنت لا تستطيع أن تدفع المهر فماذا تفعل؟ تستدين؟

ـ لا.. ولكن.. إذا كنا سنتزوج، ونعيش في بيت واحد، فما الفرق أن يكون البيت باسمي أو باسمها؟!

قالت أحلام:

ـ لا فرق.. ولكني أردت أن أنقذك من سوط العذاب الذي صبته عليك مروج.

فضحك أم عايدة، وقالت معاتبة:

ـ أتريدين أن تثيريه ضدي؟

ثم أضافت بتواضع شديد:

ـ أنا أوافق على اقتراح أحلام.

ـ توافقين؟

ـ نعم.. وجميع مصاريف نقل الملكية أتحملها أنا.. ولا أطلب المزيد.

أما احتفالات الزواج.. فأفضل أن تسافرا لقضاء شهر العسل خارج العراق.

أطربته كلمة (شهر العسل) فتبسم حالماً:

ـ أنا كنت أفكر بهذا.

نهض السيد محمود الذي ظل صامتاً طوال المناقشة الأخيرة، وقال

بحدة:

ـ لنذهب الآن.. وسنعود إلى الموضوع في المرة القادمة واستحث السيد خالد:

ـ رئيس المؤسسة ينتظرنا في المؤسسة.

* * *

وفي الطريق، كان السيد محمود يسب ويلعن:

ـ كيف لم أفطن إلى هذا؟ كانت المؤامرة على البيت وكل ما ألقته إلينا من طعم بقصد استمالتنا.. والسيطرة علينا.

مدير حسابات

مدير (خردوات)

يا للمغفل!!

ضربت حساباتي كلها في وجهي، وتركتني حائراً لا أدري ما أقول..

خدعتني.

أرادت أن أقف إلى جانبها!

مكر النساء!!

لم يخبر خالد أمه بما حدث، ولكنه عزم على ترك الموضوع، والتريث في الوقت الحاضر، لعله يستطيع العثور على فتاة مناسبة. وعلى هذا اتفق مع السيد محمود مدير الحسابات.

وبعد أسبوع من ذلك اللقاء، وقبل انتهاء الدوام الرسمي من يوم الخميس، فوجئ بدخول عايدة عليه..

ـ ستتناول الغداء معي هذا اليوم.

وقبل أن يقول شيئاً.. يقبل أو يعتذر، أضافت تقول:

ـ أنت مدعو للغداء في بيتي.

ـ شكراً.. ولكن..

جرته من يده وهي تقول:

ـ تعال معي ودع (لكن) لأهلها.

كانت ترتدي ثوباً أسود تنتشر عليه زهور ملونة، ويشف عن ثوب أبيض تحته بنفس الحجم. ومن باب المؤسسة، استوقفت سيارة.. ودفع الأجرة من جيبه سيكون اليوم الفارس الأوحد!

بلا منازع ولا منافس ولا مشاكس!

ـ فلا يخيم، ولا يغيم، ولا يتكلم نيابة عنه أحد!

إنه مدير!!

ـ تفضل.. تفضل.. لا تطرق الجرس.. هذا بيتك.

وقبل أن يدخل خرج أبوها..

ثياب مهملة، ولحية مهملة، وظهر بدأ بالانحناء أكثر، وسلة في يده.. ونظرة محيرة من عينيه. ولم يدر.. أتحركت شفتاه برد التحية أم لم تتحرك!

أما عايدة، فقد دخلت بسرعة وهي تصيح:

ـ ماما.. ماما..

وخرجت الأم..

ـ أهلاً.. أهلاً.. خطوة عزيزة. خطوة مباركة.. تفضل.

ثوب بني وشعر أحمر بدا أكثر طواعية من المرتين السابقتين اللتين

رآه فيهما وعينان زرقاوان استطاعت أدوات التجميل أن تبعث فيهما، شيئاً من الحياة والحيوية.. بل شيئاً كثيراً.. وإن بقيت الزرقة خافتة باهتة كما رآها سابقاً، ولكن الدهون والمساحيق بعثت فيهما حياة جديدة!

امتلأ صدره فرحاً وسروراً، وقبل أن يصل إليها، انحنى، كما فعل السيد محمود، فقطف زهرة بيضاء وضعها على صدره ثم مد يده يصافح أم عايدة. وقد احتار ماذا يقول صباح الخير أم مساء الخير.. وتغلب على تردده فقال:

ـ السلام عليكم.

ـ أهلاً.. أهلاً.. أين الأستاذ محمود؟

ودخلت دون أن تنتظر الجواب، وكأنها تعرف الجواب! وقادته إلى غرفة الجلوس، لا إلى غرفة الاستقبال:

ـ تفضل.. أنت في بيتك.

ارتاح السيد خالد على الأريكة وهو يقول:

ـ يا الله.

وقد حالو أن يقلد قليلاً، طريقة السيد محمود. ثم أخذ ينظر إلى التلفزيون الصغير الذي وضع في الزاوية اليمنى من الغرفة على منضدة صغيرة مكونة من طابقين، وضع على الطابق الأسفل منها ساعة ذات أجراس! كانت تشير إلى الثانية عشرة والنصف.

وانتبهت السيدة إلى موضع اهتمامه فقالت:

ـ هذا التلفزيون جلبته معي من المانيا.. اشتراه ابني عماد.. إنه يشتغل في مصنع للأدوات الكهربائية هناك!!

ثم أضافت بفخر:

ـ إنه يتقاضىٰ مائة مارك شهرياً.

ـ مائة مارك؟ . . لعلك تقصدين ألف مارك؟

نفت ذلك بإشارة من يدها وحركة من شفتيها:

ـ المارك الواحد يساوي خمسة دنانير. . فهو يتقاضىٰ خمسمائة دينار شهرياً.

بالأمس. . بالأمس فقط كان السيد محمود يكلم رئيس المؤسسة ويقول له بأن المارك الواحد يساوي ثمانين فلساً!!

عاد يقول:

ـ لعله يتقاضى مائة مارك أسبوعياً.

أجابت وهي تنسحب إلى الداخل:

ـ مائة مارك شهرياً.

لم يحضر الوالد. . وكان إياد الصغير ينظر من وراء النافذة ثم ينسحب. وعندما بلغت الساعة الواحدة تماماً، أقبلت الأم تقول، وقد رفعت يدها، فانزلقت الأسورة توسوس:

ـ تفضل. . الغداء جاهز.

فتبسم خجلاً، وقام متردداً وهو يقول:

ـ والله. . إن أمي. .

ـ تفضل أنا أمك أيضاً.

وشعر بكثير من الرعاية والاهتمام والترحيب. . لماذا؟ وكان الغداء شهياً جيداً متنوعاً. وكانت عايدة قد غيرت ملابسها، فلبست ثوباً طويلاً عريضاً، كالذي كانت ترتديه حميدة عند أول تعيينها في

المؤسسة! . كان ذلك قديماً مهملاً متواضعاً، أما هذا، فأنيق نظيف ضاحك ببياض لونه وأزهاره الصغيرة المتناثرة عليه! . كانت عايدة تقدم أمامه أطباق الطعام وتتبرع الأم بتسميتها:

ـ هذه أكلة تركية لا تعرفها إلا العوائل العريقة في اسطنبول. وهذه أكلة سويسرية. . أما هذه، فإنها أكلة فرنسية يأكلها سكان العاصمة فينا!

توقفت الملعقة التي كانت تحمل شيئاً من الحساء، في منتصف المسافة، بين الصحن وفمه. ونظر إلى أم عايدة التي كانت تلتقط حبة زيتون بشوكة في يدها، وقال:

ـ عاصمة فرنسا باريس.

فهزت رأسها وهي تترك حبة الزيتون التي استعصت على الشوكة أن تنالها، وتناولت كسرة من الخبز:

ـ لا . . عاصمة فرنسا فينا. . أما باريس فإنها عاصمة أسبانيا ثم قضمت كسرة الخبز بأسنانها وقالت:

ـ أنا زرت باريس أربع مرات. . هذا الثوب الذي ترتديه عايدة اشتريته من هناك.

أعاد الملعقة إلى الصحن، ومد يده ليتناول الماء:

ـ لكن عاصمة أسبانيا مدريد!

فقهقهت ساخرة وقالت:

ـ هل زرت باريس؟ أنا زرت باريس عاصمة أسبانيا أربع مرات.

وأسرعت عايدة تحول مجرى الحديث:

ـ هل سمعت بما حدث اليوم في شعبة الأوراق؟

ـ ماذا حدث؟

ـ عاد عباس عبد كاظم من الإجازة.
ـ رأيته.. كان قد سافر إلى بولونيا قبل شهرين.
ـ جاء إلى الشعبة ليسلم على الموظفين.. ثم دخلت حميدة فمدت يدها لتسلم عليه.. فتناول يدها وقبلها..
ـ قبل يدها؟!
ـ نعم.
ـ عباس عبد كاظم قبل يد حميدة؟!
ـ نعم..
فصرخت في وجهه.. وصفعته بقوة فوقع على الكرسي وانحنت بسرعة فخلعت حذاءها وأرادت أن تضربه وهي تصرخ:
ـ أنت تقبل يدي.. سأجعل أخي يشق فمك!!
أما هو فكان يردد بمسكنة وذلة وتخاذل:
ـ كنا هناك نقبل أيادي النساء.
وأقبل الموظفون يعاتبونه.. وهو يقول:
ـ كنا هناك..
فصاح به أبو ستار، وقد جره من رباط عنقه:
ـ أنت هنا.. أنت من هذا البلد.. أنت من هذه الأمة العزيزة العفيفة النظيفة.
ثم صرخ به بقوة ودفعه فوقع عن الكرسي إلى الأرض:
ـ أحمق!!
أنت تعلم طريقة السيد عبدالجبار في الكلام.
ـ هل كان الحاج إسماعيل حاضراً؟

ـ لا . . لو كان حاضراً لضربه بالأرض!

أطرق قليلاً، ثم رفع رأسه:

ـ ماذا تفعل أنت؟

ـ أصعد إلى رئيس المؤسسة، ليأمر بفصله من الوظيفة حالاً.

وبعد الغداء، جلس ليستريح. . فقالت الأم:

ماذا تحب؟

لم يشعر بمثل هذا العز، ولم يذق طعمه من قبل. . فقال وكأنه ملك يطير على أجنحة الخيال:

ـ أحب الشاي بعد الغداء.

فنهضت وهي تقول.

ـ يأتيك حالاً.

وبعد قليل عادت وهي تحمل صينية من البلور فقالت:

ـ هذه الصينية أرسلها ابني زهير من النمسا.

فمد يده يتناول كأس الشاي وسأل:

ـ أظن أن الأستاذ زهير قد عاد من أمريكا؟

فأجابت وهي تضع الكأس الثاني أمام عايدة، بينما احتفظت بالكأس الثالث لنفسها:

ـ إنه لم يذهب إلى أمريكا. . إنه في النمسا. . إنه يشتغل في أكبر مصنع للحلويات هناك!!

لم يحول نظره إلى عايدة.

وراح يفكر وهو يشرب الشاي بهدوء. ولم يبد على عايدة أنها سمعت شيئاً مما دار بينه وبين أمها. وأراد أن يعيد القدح الفارغ إلى الصينية فهبت الأم تقول:

ـ لا والله.

وتناولت القدح من يده وأعادته إلى الصينية التي كانت تنتظر.. وأنسته هذه المجاملة قصة زهير والجامعة الأمريكية والنمسا، وشعر بنفسه يقول بعد أن تردد قليلاً:

ـ ماذا قررتم؟

فاعتدلت الأم، وفتحت يديها ببراءة:

ـ إنما نقرر ما تقرر.

ـ إننا توقفنا عند المهر.

فضحكت وقالت:

ـ يا رجل...

أنا على استعداد لأن أقدم لك كل ما تطلب.. أخبرني كم تحتاج وأنا أحضره حالاً.

وفوجئ بهذا الكرم.. فقال:

ـ شكراً.. ولكن..

ـ اطلب.. اطلب ما تشاء.. خذ هذه الأسورة.

وحاولت أن تنزعها.. فنهض مادّاً يديه، معتذراً وراجياً:

ـ لا.. لا.. أرجوكِ..

ثم جلس وقال:

ـ ولكن تسجيل البيت..

فنظرت إليه.. بعينين فيهما الرقة والعذوبة والعتاب:

ـ إنما أردت ذلك كشيء شكلي لا أكثر..

لكي أفتخر ببنتي الصغيرة.

ألا يحق لي أن أفرح وأرقص وأفتخر ببنتي وزوج بنتي؟

غمرته فرحة عارمة، فنهض من مكانه، وانحنى عليها فقبلها من رأسها. . ثم أخذ يدها فقبلها وهو يقول:

ـ اطلبي ما تشائين فأنا رهن إشارتك. .

ـ بل أنت فاطلب ما تشاء ونحن نلبي دون تردد!!

* * *

وهكذا وقع في الفخ.

وقدم البيت مهراً لعايدة. . !!

ولما أخبر أمه. . بعد ذلك. . أطرقت ساعة، ثم رفعت رأسها، والألم يمزقها، والدموع تصرح في عينيها وقالت:

ـ لماذا؟ . . «بنت السلطان حمودة»؟!

ولما سمع محمود، سكت طويلاً، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:

ـ كان مهر أمي ثلاثين روبية.

ثم التفت إليه وقال مواسياً:

ـ لا تندم على ما فات.

* * *

وأشار عليه السيد محمود بأن يشتري الأثاث من محلات المزاد، إنه سيعثر على نوعية جيدة بثمن رخيص! فاشترى أثاثاً لغرفتي المنام والاستقبال. ولكنه كان يشعر في نفسه بالخوف والانكسار. . ماذا لو علمت الأم؟! وطمأنه السيد محمود عندما جاء بصباغ ممتاز هو السيد عزاوي الذي استطاع بكل مهارة أن يعيد للأخشاب الجدة والجمال والشباب!!

في مساء الخميس، في الساعة الثامنة وخمس دقائق، وقفت سيارة جميلة أنيقة بيضاء، ترجلت منها أم عايدة وهي تقول:

ـ مساء الخير .

فاستقبلها السيد محمود :

ـ أهلاً . . أهلاً . . أهلاً بعمتي العزيزة أم عايدة .

كانت ترتدي ثوباً لامعاً صارخاً شاباً بلون النبات لا يناسب عمرها، وكانت تحمل حقيبة يد بنفس اللون . .

ـ أهلاً بالأستاذ محمود .

ثم ترجلت عايدة . . بثوب أبيض لامع أيضاً . .

وقد نقشت على الجهة اليسرى من الصدر زهرة ملونة . وكانت تحمل حقيبة يد سوداء

ـ مساء الخير . .

ـ أهلاً بالأستاذة عايدة . . أهلاً . .

وخرج السيد خالد مسرعاً وهو يقول :

ـ هل حضروا . . . ؟

ثم أسرع إلى عمته يرحب بها، ثم صافح عايدة وهو يقول :

ـ أهلاً عايدة . .

ثم ترجل من المقعد الأمامي للسيارة رجل مهيب الطلعة متوسط القامة أبيض الشعر .

ـ السلام عليكم . .

قدمته أم عايدة وهي تقول :

ـ أبو أحلام . . جارنا . . إنه أبو أحلام . . مدير متقاعد .

صافحة السيد محمود بحرارة :

ـ أهلاً (عمي) . . أهلاً بأبي أحلام .

وصافحه السيد خالد وهو يقدم نفسه:

ـ خالد عبد المجيد الصالح.

أضافت أم عايدة:

ـ خطيب عايدة.

ـ تشرفنا.

من الناحية الثانية للسيارة، ترجلت فتاة، بلباس إسلامي جميل، وربطة بيضاء تحتضن شعرها بحنان فلا يظهر منه شيء. فنظر إليها السيد محمود قليلاً ثم صاح:

ـ أنت تريدين الذهاب إلى الحج.. لا تنكري.

فأجاب أبوها:

ـ إنما نريد الذهاب إلى العمرة!

قالت أحلام.. وقد بدت جميلة مهيبة أصغر سناً من المرة السابقة:

ـ لم نستطع أن نهتدي إلى البيت بسهولة.

فالتفت السيد محمود إلى السيد خالد:

ـ لماذا؟.. ألم تخبرهم بأن خروفاً أبيض كان هنا قبل المغرب؟!

فضحك الجميع..

وتقدم السيد خالد وهو يشير بيده:

ـ تفضلوا.

كان البيت قد أنير إنارة رائعة.. فبدت الأخشاب لامعة ضاحكة، أثارت دهشة الأم وإعجابها فهتفت:

ـ الله..

وراحت تتلمس خشب الأرائك بيدها هي تقول:

ـ رائعة . . رائعة . . بكم اشتريتم هذه؟

أراد السيد خالد أن يقول: بأربعين ديناراً . . ولكن السيد محمود صاح وهو يتقدم بسرعة:

ـ بأربعمائة دينار فقط . . بذلت المستحيل حتى استطعت أن أحصل عليها بهذا الثمن!

ثم حوّل الحديث وهو ينظر إليها بإعجاب:

ـ إن الذي ينظر إليك لا يمكن . . أبداً أبداً . . لا يمكن أن يظن إلا أنك أخت عايدة لا أمها.

فضحكت بسرور وقالت:

ـ أكثر الناس يظنون أنها أختي.

ـ طبعاً . . طبعاً . .

ثم أشار بيده إلى السيد خالد:

ـ سليه . . سلي الأستاذ خالد . . عندما زرتكم في البيت لأول مرة . . قلت له: هل هذه أختها؟!!

كان السيد خالد يبتسم فقط، ويهز رأسه مؤيداً . . ثم قادها إلى غرفة المنام، ووقف أمام خزانة الملابس ذات الأبواب الأربع، والتفت إليها:

ـ بكم تقدرين سعر هذه الخزانة؟ . . أنا أعلم أنك ستذكرين السعر بالضبط.

ـ فتحت الخزانة ونظرت إليها جيداً ثم قالت:

ـ سبعمائة دينار.

التفت إلى السيد خالد وهو يبدي إعجابه بتقديرها:

ـ ألم أقل لك.. إن أي إنسان لا يستطيع أن يقدر تقديراً صحيحاً مضبوطاً كهذا.

تمتم السيد خالد محاولاً أن يقول شيئاً، ولكنه قاطعه!

ـ أعلم.. أعلم أنك تريد أن تقول أنها بسبعمائة وخمسين ديناراً.. لا فرق.. لا فرق.. إنها قدرت تقديراً صحيحاً!!

وهكذا راح يضرب الرقم الصحيح بعشرة وعشرين وهي تصدق بل تتعجب، بل تريد أن يكون الرقم أكبر وأكبر لكي تسمع أحلام، فتحدث الجيران!!

لم تظهر السيدة عزيزة بنت (الحجية) أم السيد خالد! انكمشت على نفسها في المطبخ تهيء العشاء والشاي وما يجب أن يقدم للضيوف من فواكه.. ولم تسأل عنها عايدة ولا أمها. وتسللت إليها أحلام عندما سمعتها تسعل:

ـ مساء الخير.

التفتت أم خالد بسرعة ونظرت إليها بدهشة:

ـ أهلا بنتي..

ثم سألتها:

ـ أنت أخت عايدة؟

ـ أنا صديقتها.. أحلام.

ثم نظرت إلى ملابسها التي تصل إلى الرسغين.. إلى القدمين:

ـ هل رآك ابني قبل أن يخطب عايدة؟

فتبسمت وهي تجيب:

ـ لا.

ـ هل أنت متزوجة؟

فهزت رأسها الذي تحتضنه الربطة البيضاء:

ـ كنت متزوجة.

ـ فهتفت وهي تضرب بيدها على صدرها:

ـ هل طلقك؟!!

فضحكت أحلام وقالت:

ـ بلى توفي.

ـ إلى رحمة الله.. البقية في حياتك.

ـ أشكرك.

ـ سكتت قليلاً.. ثم سألتها:

ـ هل ترك لك شيئاً؟

ـ كثيراً.. والحمد لله.

ـ الحمد لله.

ـ سأساعدك في إعداد الطعام.

ـ لا تكلفي نفسك.

ـ سأشعر بالراحة إذا ساعدتك.

ـ أشكرك.

لم يدر السيد محمود لماذا شعر بأن السيدة الذكية الثرية التي تحدثت عنها أم عايدة في بيتها هي أحلام.. أحلام لا غيرها!! بل لم يرد أن تكون إلا إياها.. لقد دخلت إلى عقله وقلبه بلا استئذان!.. لا سيما عندما رآها بهذا الزي الحبيب المهيب..

وراح يتودد إلى أبيها.. وتلجلج لسانه فلم يعرف كيف يكلمه

وهو الطليق!!

وعندما حانت ساعة الانصراف، قالت أم عايدة:

ـ هل تريد أن نوصلك إلى منطقة السيارات يا أستاذ محمود؟ ولكن أبا أحلام قال:

ـ بل نوصله إلى المكان الذي يريد.

ـ أشكرك يا عمي.. أشكرك.. أنا أسكن الأعظمية.

ـ نوصلك إلى الأعظمية.

ثم مد أبو أحلام يده فصافح السيد خالد وهو يقول:

ـ بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير.

ـ أشكرك.

لم يحصل السيد خالد من عايدة على كلمة ثناء أو امتنان على الرغم من كل ما بذله السيد محمود من عرض وإشادة بفضله وكرمه. لا يدري لماذا يشعر بحاجز بينها وبينه.. وبينه وبين أهلها؟! الشخص الوحيد الذي شعر بالميل إليه والتجاوب معه والدها!!..

إنه لم يتكلم معه.. ولكن العيون كانت تقول أشياء وأشياء لا يستطيع اللسان مهما أوتي من بيان أن يعبر عنها!!

* * *

عندما عاد من لبنان، بعد قضاء شهر العسل، لم يأتي محمود لتهنئته. ولما سأل عنه، قال الحاج إسماعيل:

ـ تزوج السيدة أحلام، وسافر معها إلى مصر.. ومن هناك سيذهب معها إلى مكة.. لأداء العمرة.

وبعد شهرين أرسل السيد محمود استقالته من المؤسسة! وقال في رسالة صغيرة بعث بها إليه.. إن الوظيفة للكسالى والعجزة.. ومحدودي الرزق!!

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١٠- في طَريق النّور...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ـ أم جمعة . .

صاح سبتي بصوت عال جعل الجميع ينتفضون وينظرون إليه .

ـ أم جمعة . .

ثم تطلع بعينيه المنتفختين في الوجوه، وقال :

ـ من أنتم؟ . . ماذا تريدون؟ . .

مدَّ السيد صبحي يده اليمنى مشيراً بأصبع السبابة إلى أنف سبتي، ثم حركها إلى جهة اليمين وهو يقول :

ـ انظر . . انظر . . انظر . . إنه الأستاذ .

ـ الأستاذ؟

ـ نعم .

ـ الأستاذ؟

ـ نعم . . إنه الأستاذ خالد .

ـ لماذا . . لماذا جاء . . لماذا جاء الأستاذ إلى بيتي؟

ـ نحن في المصعد .

ـ أنتم في المصعد؟ . . أنا في بيتي . . لماذا جاء الأستاذ إلى بيتي؟

صاح السيد صبحي :

ـ نحن وأنت والأستاذ كلنا في المصعد .

ـ لماذا؟

ـ هل نسيت؟

ـ لا . . أنتم في المصعد وأنا في بيتي .

تثاءب السيد عبدالفتاح، وتمطى بجسمه، ثم أخرج منديلاً أبيض

مسح به أنفه وشاربه الذي تخلله الشيب، ثم هزَّ سبتي من ركبتيه وقال:
ـ انظر.. نحن الخمسة في المصعد.
نظر سبتي بعينيه متفحصاً ثم قال:
ـ أنتم أربعة.. أين الخامس؟
انفجر الأربعة ضاحكين، وراح الحاج إسماعيل يسعل وهو يريد أن يسيطر على نفسه من الضحك.. ثم قال:
ـ نحن أربعة وأنت الخامس.
ـ أنا الخامس.. لماذا؟
ـ لماذا؟!
ـ لماذا أنتم هنا.. أين أم جمعة؟
صرخ المدير في وجهه:
ـ يا غبي.. يا غبي. نحن في المصعد من الليلة الماضية بسبب جهلك وغبائك.. و..
ـ أريد أن أذهب إلى البيت.. أنا (جوعان).
ثم راح يبحث في جيوبه عن شيء يأكله. وبعد قليل أخرج قطعة من الحلوى ملفوفة بورق سميك، فأزاح عنها الورق وألقاها في فمه.
وبعد قليل سأله السيد صبحي:
ـ هل تريد حليباً؟
ـ لا.
ـ هل تريد شاياً دافئاً؟
ـ لا.
صمت قليلاً، ودار بعينه في الوجوه:

ـ أنتم تسخرون مني.

هز السيد صبحي رأسه:

ـ نعم.

أخذ سبتي يستعيد وعيه.. فسأل:

ـ هل نمنا كلنا في المصعد؟

ـ نعم.

ـ وأنا معكم؟

ـ وأنت معنا.

فتبسم مسروراً وقال:

ـ كنت أتمنى هذا.

ثم ضحك وأضاف:

ـ سأذهب غداً مع أم جمعة إلى مرادي.

ـ غداً أنت في الدائرة

ـ لا.. غداً عطلة رسمية.

ـ سيكون العيد يوم الأحد.

ـ غداً عطلة رسمية.. ثم عيد الأضحى أربعة أيام.. ثم يوم الخميس عطلة رسمية أيضاً.

هتف الجميع مذعورين.

ـ غداً عطلة رسمية؟!

انتفض سبتي خائفاً واقفاً:

ـ تايه أخبرني..

هو سمع المذيع يقول.. السبت والخميس عطلة رسمية

ـ تايه أخبرك بذلك؟

ـ نعم.. ألم تعلموا؟

لم يتمالك السيد صبحي نفسه، فراح يضرب على رأسه ويبكي كالأطفال:

ـ يا ربي.. يا ربي.. يا ربي.. ثمانية أيام في المصعد..

مَن منا سيبقى حياً..

كلنا سنموت..

كلنا سنموت..

سنموت..

جذب الحاج إسماعيل سبتي، وأدناه إليه:

ـ متأكد أنت مما قلت؟

ـ ماذا قلت؟

ـ أمتأكد أنت أن تايه أخبرك؟

ـ ماذا أخبرني؟

ـ هل سمع تايه المذيع يقول إن السبت والخميس عطلة رسمية؟

ـ نعم.. ألم يخبركم؟

ـ متى قال لك ذلك؟

ـ عندما طلبت إليه أن يشتري علبة سكاير للأستاذ.

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال إن الأسبوع القادم كله عطلة رسمية. وإنه سمع ذلك عندما كان يشرب الشاي في المقهى.

كان الجميع قد نهضوا واقفين، ما عدا السيد صبحي الذي بقي جالساً، دافناً رأسه بين ركبتيه وهو ينشج بالبكاء:

ـ كنت أظن أننا سنخرج من المصعد غداً عندما يأتي الموظفون.. كنت أريد أن أتمتع بالعيد.. أريد أن أعيش.. يا ربي.. يا ربي!

كان الهم والغم واليأس قد خيَّم عليهم، وقد راح الحاج إسماعيل يردد مع نفسه:

ـ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ونظر المدير إلى ساعته:

ـ إنها الثانية والنصف بعد الظهر!

قال الحاج إسماعيل:

ـ يجب أن أصلي الظهر، فإن العصر يؤذن في الثالثة والنصف وست دقائق.

أراد المدير أن يتهجم على سبتي، فراح يدندن:

ـ هذا القرد..

لكن الحاج إسماعيل قال له بكل ثقة وهدوء:

ـ دعه.. فإن أرادة الله أعلى وأقوى من كل إرادة قد اضطرتنا إلى ما نحن فيه.. لم يكن هو السبب.. نحن السبب!

إننا مذنبون..

لقد أذنبنا ذنباً نستحق عليه ما نحن فيه!

ثم مدَّ يده فضغط على مفتاح المروحة، فراحت تدور في سقف المصعد ترسل هواءً منعشاً جعل السيد صبحي يكف عن البكاء ولكن بقي جالساً في الزاوية البعيدة عن الباب يردد مع نفسه ذكر أولاده وزوجه وأمه.

عاد الحاج إسماعيل فقال:

ـ يجب أن أصلي الظهر.

ثم أضاف:

ـ إنه ما يزال أمامنا أمل في النجاة.. فإن الله لا يتخلى عن عبده أبداً.

ثم تيمم.. ووقف يصلي.

ووقف كل من السيدين مدير الإدارة وعبدالفتاح واجمين ذاهلين عن كل ما يحيط بهما. أما السيد عبدالفتاح فقد حلق بروحه إلى أرضه.. إلى بلاده.. يجوب في ربوعها، يتمنى لو مات.. لو قتل.. لو استشهد على أرضها!! لو انظم إلى مواكب الشهداء الذين عطروا بدمائهم أرض الأنبياء..

وراح السيد خالد يبكي بنفسه على أمه، وعلى ولده الصغير العزيز.. كيف ستعيش بعده.. بل كيف ستموت؟!

أين يجد العمل الصالح الذي يدعو الله به؟

مرة رأيت امرأة في الطريق تعاني من آلام الوضع، فحملتها في سيارة أجرة وذهبت بها إلى المستشفى..

هل يكتب ذلك العمل في صحيفتي؟!

إنه لم يقصد بذلك العمل وجه الله. أراد أن يقدم مساعدة فحسب!!

آه..

كثير من الناس يظنون أن كفتهم عند الله راجحة، وأن أبواب الجنة ستفتح لهم!

أنا لا أؤذي أحداً..

لا أتكلم على أحد..

أنا أفضل من هؤلاء المصلين..

كيف.. كيف.. كيف..؟

أيها الأحمق..

أيها الجاهل..

كيف تزكي نفسك على الله؟

أنت كذلك الطالب الكسل الخذول الشكس النكس الذي لا يحفظ دروسه ولا يؤدي واجباته، ثم يريد أن ينجح ويبز أقرانه؟!!

ماذا سأقول لربي عندما أقف بين يديه؟

لماذا ينسى المرء ربه عند الرخاء ويذكره عند الشدة؟!

انتهى الحاج إسماعيل من صلاته، ولكنه بقي جالساً يذكرالله تعالى.

لا إله إلا الله العظيم الحليم.

لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض، رب العرش الكريم..

راح يردد هذا الدعاء كثيراً كثيراً.. وكان سبتي قد أخذ يضغط على الجرس وهو يدندن:

ـ «يا بوزبون الحبر

ـ يا مطرزا بإبرة.

ـ كل الشرايع زلك.

من عندنا العبرة».

وأنصت الحاج إسماعيل جيداً..

وراح يدير الكلمات بنفسه مع نفسه:

ـ «كل الشرايع زلك.. من عندنا العبرة».

نعم..

كل الشرايع زلق..

إلا شريعة الله الخالدة!!

من أراد النجاة..

من أراد الحياة الحرة الكريمة..

من أراد سعادة الدارين..

من أراد أن يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..

فمن هنا..

من عندنا..

من شريعتنا..

شريعة الله الخالدة..

نهارها نهار.. وليلها أنوار.. وكلها أقمار!!

عندما تخرج من كلية الحقوق، لم تكن لديه رغبة في الاشتغال في دوائر الدولة. كان يعتبر الوظيفة قيداً ثقيلاً، بل عبودية متطورة!! ولم يشتغل بالمحاماة.. لأن المحامي الجديد يحتاج إلى وقت وصبر لكي يعرفه الناس ويكسب ثقتهم.

كان أبوه الدكتور أحمد منصور، صاحب العيادة المعروفة في شارع

غازي، قرب ساحة الوصي، قد سجل بيتاً باسمه في الحارثية، فهو يتسلم إيجاره.. عشرين ديناراً كل شهر. وأخوه كمال أحمد منصور رئيس الملاحظين في مديرية الموانئ العراقية، في البصرة. يرسل له عشرة دنانير شهرياً. أما أخوه الأوسط بهجت أحمد منصور، والذي يكبره بخمس سنوات، فلديه مزرعة أبي غريب لتربية الدواجن ويرسل له عشرة دنانير أيضاً.. كل شهر!. أما البقية.. الذين هم أصغر منه سناً، فكلهم بنات.. وعددهم أربعة.. أكبرهن حسنات، ثم سنابل، ثم نماء ثم قمر!

من النمسا كانت ترد إليه رسائل من صديقه عبدالرحيم نايف.. ذلك الشاب النحيف الخفيف المرح.. الذي ترك العراق بتأثير صديقه رشيد الذي كان يسكن الأعظمية، قريباً من بيت الحاج محمود عبدالوهاب، القارئ المعروف.

عبدالرحيم نايف لم تكن لديه مشاكل مع أي إنسان.. كان حبيباً كريماً يتفتح القلب لاستقباله واحتضانه والترحيب به! ولكنه وقع تحت تأثير الرسائل التي كان يكتبها السيد رشيد الذي سافر قبله بسنة وأخذ يحثه على السفر إلى هناك. ومن ألمانيا كان السيد عبدالستار عباس وكاظم عبدالله الذي اكتسب الجنسية الألمانية!! ومن أفغانستان، ثم من باكستان، ثم من هونكونك ثم من اليابان.. كان السيد صالح يراسله!!

ثم انقطعت عنه الرسائل تباعاً.. عبدالستار وكاظم من ألمانيا، وعبدالرحيم ورشيد من النمسا.. وصالح من اليابان.

قامت في نفسه رغبة قوية للسفر إلى هناك.. للطواف حول

العالم. . لا ليبقى. . ولكن ليعرف السبب الذي من أجله فضل أولئك الشباب الأحبة البقاء في غير بلدهم!! وقدموا جهودهم وأفكارهم وعقولهم، وكل ما يملكون، لأمة غير أمتهم!!

ما الذي جذبهم؟

ما الذي استهواهم؟

ما الذي حبب إليهم البقاء هناك وصرفهم عن أمتهم؟!

ولكنه لم يفعل. .

منعه من السفر. . أو من التعجيل بالسفر. . قدوم صديق عزيز، ذهب قبل سنوات إلى فرنسا، ثم عاد مسرعاً. . لم يبق فيها غير أسبوع واحد. . ثم عاد مسرعاً يحمله الحب والحنين والشوق والندم!.

انقلبت مفاتن باريس في نظره إلى شيء كئيب كريه كريب!!

شعر كأنه قد حوصر من كل مكان. .

مباهج باريس وفتنتها انقلبت في نظره إلى ظلام!!

فضاقت عليه الدنيا. .

ونصحه الأطباء بالعودة إلى العراق. .

فعاد. .

تحمله أجنحة الشوق الذي دونه شوق الحبيب إلى الحبيب!!

وعندما هبط من الطائرة، بعد منتصف الليل. .

وقف يتنفس ملء صدره. .

ويحتضن بابتسامة عريضة سمراء، الوجوه الكثيرة التي خفت لاستقباله.

ولكن. .

بعد أيام قليلة ندم!
ندم على عودته بمثل تلك السرعة . .
ربما بسبب لوم الأصدقاء!
أو بسبب إلحاح الأهل . .
أو غير ذلك . .
ثم عاد مرة ثانية إلى فرنسا . .
وبقي هناك سنتين اثنتين . .
ثم رجع إلى العراق . .
. . . . . .
عاد هذه المرة بغير الثوب الناصع الذي ذهب به . .
بغير القلب النظيف الذي كان يحمله .
بغير الروح الرفيف . .
بغير الشارب الجميل . .
بغير اللسان الأصيل . .
ماذا فعلت فرنسا به؟!
عاد مسخاً هزيلاً . . هزيلاً . . هزيلاً . . بلا قلب، بلا حب، بلا شوق .
بلا لهفة لهذا البلد ولا أهل هذا البلد!!
عاد لا يعرف أهله ولا أصدقاءه ولا جيرانه . .
عاد يتغنى بفرنسا في قيامه وقعوده ونومه ويقظته!
ولم يتحمل السيد إسماعيل . . فهتف به مستنكراً:
ـ من أنت؟

ـ أنا . . أنا . .

فقاطعه أبو حقي بألم وأسف وغضب :

ـ أنا لا أعرفك . .

إن صديقي الذي أعرفه وأحبه وأحترمه قد مات . .

مات يوم خرجنا لتوديعه في المطار ! !

ولم تمض مدة طويلة حتى عاد من أمريكا صديق عزيز . . يتفجر حباً وعاطفة وحياءً . . وبفرحة غامرة ذهب إسماعيل لاستقباله . . لرؤيته . .

كان يريد أن يطير إليه . .

أن يصل إليه على جناح البرق . .

وعندما رآه . .

شعر بقلبه يبكي خيبةً وألماً وحسرة ! !

لقد عاد الصديق العزيز مسلوب الروح والقلب والشارب . . والإرادة ! !

عاد مشوهاً . .

متنكراً لكل عزيز علينا ! !

إنه لا يريد أن يتكلم لغتنا . .

ليس في نظرته وأقواله وإشارته غير الازدراء والسخرية والتقزز والتقذر من كل ما يحيط به !

وترك فريداً هذا . .

وتمنى لو لم يعد إلى العراق . .

أو لم يذهب إلى أمريكا !

ما الذي يقدمه الغرب لأبنائنا حتى يستطيع أن ينتزعهم منا ويطوقهم بقيد يشدهم إليه ويجعلهم عبيداً له؟!!

وبعد أشهر قليلة عاد من أمريكا صديقه محمود.. كان هذا قد ذهب إلى بيروت ثم إلى فرنسا ثم إلى كندا ثم إلى الولايات المتحدة. ومكث خلال رحلته الطويلة ودراسته أكثر من عشر سنوات.. ثم عاد..

وتردد إسماعيل في الذهاب إليه.. وخشي أن يستقبله بنفس الوجه المنضوج بالخل الذي استقبله به فريد! وشد ما كانت فرحته ودهشته وإعجابه، عندما استقبله محمود بروحه وقلبه وعقله وعطره ولسانه لم يتبدل منه شيء.. ! لم تستطع أمريكا بكل مفاتنها ومباذلها أن تنال منه!

عاد بنفس القلب الصحيح السليم..

بنفس العقل والشارب واللسان..

بشخصيته القوية..

بسَمْته المحبوب..

بلهجته البغدادية القديمة!

عاد يحمل روح أمتنا الحبيبة، ولهجة شعبنا الكريم، وعطر بلدنا العزيز.. كان صحيحاً سليماً معافى..

لم يستلب..

لم ينتهب..

لم يلوث..

نقي العقل، نقي القلب، طاهر الذيل!!

ورغم الراحة التي شعر بها عندما التقى بصديقه محمود، الذي لم يغير ولاءه لهذه الأمة، ولم يغير إخلاصه لهذا الشعب، ولم ينقص

تعلقه بهما . . فقد أخذت تلح عليه وتطرق عقله وقلبه بقوة، وتزعجه عن مأكله وملبسه، ومسألة مهمة!!

لماذا يتعلق بعض شبابنا بدول الكفر . . بدول البغي . . بدول العدوان؟!

لماذا يحولون ولاءهم إلى تلك الدول التي تعمل ليل نهار على تمزيقنا، تشتيتنا، إذلالنا، استعبادنا؟!

لماذا لم يحولوا هذه الحب العرم إلى أمتهم . . إلى شعبهم؟!

في مطعم كامل . . في شارع الرشيد، رأى شاباً يدافع بكل وقاحة وصلافة وصفاقة عن الانكليز! . . كان ثائراً غاضباً يسب ويلعن ويشتم كل من يعاديهم!!

في محلته . . كان هشام أبو غدة . . يهيم بحب الألمان النازيين، وقد طبع الصليب المعقوف على زنده الأيمن بالوشم الأخضر . . وكان يحمل صورة هتلر ويخفيها تحت ملابسه!

في الكلية كانت معه فتاة تدعى أزهار . . تتغنى، بل تتمنى . . بل تحلم باليوم الذي تغمض فيه عينيها ثم تفتحهما فتجد نفسها في روسيا!!

وأتباع نوري سعيد، وغير نوري سعيد، ممن يخدم الانكليز والفرنسيين والأمريكان والألمان، بإخلاص يفوق ألف مرة إخلاص أولئك الأقوام أنفسهم لأنفسهم!!

لابد أن أولئك الشباب والحكام يفقدون شيئاً عزيزاً ثميناً غالياً!!

ماذا يفقدون؟

راح يفكر في أمتنا العظيمة . .

تاريخنا المجيد . .

في بطولاتنا وفتوحاتنا . .

ماذا نعرف عن تاريخنا؟

سطور قليلة بأقلام ملوثة غطت تاريخ أمتنا الناصع بغبار من التهم والأكاذيب والأباطيل، تجعل الطالب في المدرسة يزدري نفسه، ويزدري أمته، ويزدري وطنه!! .

فإذا جاء إلى التاريخ الأوروبي، وجده محاطاً بهالة من التقدير والتفخيم والتمجيد والإعجاب الذي ما بعده إعجاب!!

كان مدرس التاريخ، يصف هجوم الأسطول الأوروبي على الأسطول العثماني، وتدميره له . . بكل فخر!! ينفخ صدره ويرفع رأسه، ويشير بيده، وكأنه يقود بنفسه تلك المعركة ضد الأسطول العثماني! وما درى المدرس المسكين . . أن ذلك الأسطول الذي دمره الأوروبيون، كان يحمل أبي وأباه، وجدي وجده . . كان نصف جنوده من العرب المسلمين!! .

أراد إسماعيل أن يرجع إلى تاريخ أمته العظيمة، الأمة العزيزة المرهوبة، التي يحاول العالم الظالم سحقها، وتدميرها، وتسليط نفايات الأرض عليها، وإجبارها الخضوع .

على الركوع . .

على الخنوع . .

لكي يستطيع أن يضع القيد في عنقها، ويجرها كسيرة أسيرة هزيمة ذليلة!! .

هذه الأمة العظيمة . .

لابد أنها تمتلك من أسباب النهوض والقوة والتفوق ما لا تمتلكه أمة على وجه الأرض!

لذلك يخشاها الطغاة.

لذلك يهابها العالم المجنون..

لذلك يحسب لها الجبابرة الذين يسيطرون على دفة العالم ألف حساب!!

فمن أين يبدأ؟

وماذا يقرأ؟

قرأ لرجال معاصرين يجيدون تسويد صفحات كثيرة يخرجونها على شكل كتاب.. فإذا قرأها قارئ لم يجدها شيئاً!! أقلام هزيلة سحيلة ليست لديها القابلية على الوقوف بقوة واعتزاز.

أقلام لا تستطيع قول الحق، وإذا قالته أحاطته بمئات من الاعتذارات والمسوغات والتعلات التي تذهب بروعة الحق وقوته وسطوته وبهائه!!

ثم أخذ يتردد على المكتبات العامة.. مكتبات الأوقاف، مكتبات الإدارة المحلية، ومكتبة المجمع العلمي العراقي.

في مكتبة المجمع العلمي التقى بالرجل الذي دله على الطريق.. كان الرجل قد تناول الأربعين من العمر.. طويلاً مهيباً، تتوج رأسه سدارة سوداء، تبدو عليه الصراحة والسماحة والخلق الكريم.

أراد أن يسأله.. فتردد..

شعر بهالة من الهيبة والاحترام تحول بينه وبينه!.. شعر بهالة من النور الخفي..

وقف في مكانه يقلب كتاباً لم يقرأ عنوانه . .
كان يريد أن يتحدث إلى الرجل . .
لعله يستطيع أن يرشده . .
شيء غريب جذبه إليه . .
وسمعه يسأله عن الكتاب الذي يحمله . .
فرفع نظره إليه . .
وخيل إليه أنه يعرفه من قديم . .
فسلم عليه . .
ثم نظر في عنوان الكتاب : أعلام الموقعين عن رب العالمين .
سأله الرجل :
ـ هل تريد أن تقرأه؟
هز رأسه :
ـ لا .
ثم أضاف قائلاً سائلاً :
إنني أبحث عن كتب تتحدث عن تاريخ أمتنا . . عن بدايتها أمة عظيمة مرهوبة مرغوبة!
قال الرجل :
ـ اقرأ كتب السيرة .
ثم أضاف عندما بقي ينظر إليه يتطلع إلى المزيد :
ـ اقرأ كتب السيرة النبوية . . وسيرة الصحابة . ثم راح يعدد له قائمة بأسماء الكتب وأسماء مؤلفيها . ورجاه السيد إسماعيل أن يسمح له بكتابتها، فجلسا في نايحة وراح يكتب ما يملي عليه . ثم سأله

الرجل:

ـ هل تصلي؟

أجاب بكل بساطة:

ـ لا.

فأخذ الرجل الكتاب الذي كان أمامه، وقال:

ـ انظر:

وأشار بيده إلى عنوان الكتاب:

ـ إن لكل كتاب عنواناً.. وعنوان المسلم الصلاة.

ولما ذهب. سأل أمين المكتبة، الذي أبدى له احتراماً بالغاً:

ـ من الرجل؟

ـ ألا تعرفه؟

ـ نعم.

وقبل أن يجيب، أقبل رئيس المجمع العلمي يتبعه ثلاثة من الأساتذة، فخف أمين المكتبة للترحيب بهم!

* * *

وراح يقرأ كتب السيرة، ويقرأ.. ويستزيد.. ويريد أن يسبق الزمن، ويعوق ما فاته من علوم نافعة، ويتمنى لو استطاع أن يأكل الكتب، يلتهمها، فتتحول علومها إلى عقله وقلبه!!

وكان خلال قراءته تلك، تطرق قلبه كلمة الرجل المهيب:

ـ لكل كتاب عنوان.. وعنوان المسلم الصلاة!

وذهب يوم الجمعة إلى المسجد، وقبل أن يدخل الحرم، شاهد صديقه الشاب الهادئ الطيب الوديع فائق عبدالحميد يخرج مسرعاً،

وقال وهو يسلم عليه:

ـ سأتوضأ وأعود حالاً.

وتذكر أنه لم يتوضأ.

ولكن، كيف يتوضأ؟

ذهب إلى الميضأة، وأخذ يسترق النظر إلى المتوضئين، ويتوضأ مثلهم. وعندما دخل الحرم، شعر برهبة عظيمة وبشيء يهز كيانه هزاً عنيفاً!

هذا المسجد، هو الذي جمع النواة الأولى للإسلام، ورباها على خير يد، وعلمها على خير كتاب، وأخرجها إخراجاً متيناً، وصاغها صياغة رائعة.. في دينها، في عقلها، في علمها في أخلاقها.. تلك الأمة العظيمة التي أجمل القرآن وصفها بأوجز لفظ وأعجزه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ونزل الخطيب.. شاب قصير نحيف أسمر، يضع نظارات شمسية على عينيه. ووقف يؤم المصلين.

وانتظمت الصفوف لأداء الصلاة.

وأخذ إسماعيل يرتجف..

وراحت الدموع تتساقط من عينيه، وهو يستمع إلى قراءة الإمام للقرآن.. بل راح يبكي بصوت لم يستطع حبسه!!

ومن ذلك اليوم راح يصلي.. ويتعلم أحكام الوضوء والصلاة والصيام..

ووقع في أخطاء كثيرة قبل أن يتقن الصلاة. استوقفه أحد المصلين مرة.. بعد صلاة العشاء وقال له بصوت كالهمس:

ـ أنت لم تتم الصلاة.

قال:

ـ صليت مع الإمام.

قال الرجل:

ـ ولكنك صليت ركعة واحدة.

ـ سلمت عندما سلم الإمام.

فتبسم الرجل وقال:

ـ ولكن الإمام صلى أربع ركعات، أما أنت فصليت ركعة واحدة.

سكت إسماعيل قليلاً ثم هز رأسه وقال:

ـ هذا صحيح.

ـ إذا أدركت ركعة أو ركعتين مع الإمام فلا تسلّم إذا سلم الإمام، وإنما عليك أن تقوم فتكمل ما فاتك.

ـ فهل أعيد الصلاة؟

ـ لا.. ولكن تكمل الركعات الثلاث التي فاتتك.

وصلى مرةً في جامع الوزير، المطل على دجلة، فاستوقفه بعد الصلاة، رجل مسن يعتمد على عصا، فصاح به:

ـ كيف صليت؟

أجاب:

ـ صليت كما صليتم.

ـ أنت خالفتَ الإمام.

قال:

ـ لأنه ركع قبل أن أقرأ سورة الفاتحة.

فصاح الرجل المسن بغضب:

ـ تركع معه.

دون أن أقرأ سورة الفاتحة؟!

ـ تركع معه.

وتجمع حوله عدد من المصلين، وأقبل الإمام، شاب أبيض، بلحية سوداء خفيفة تزين وجهه، وقال بأسلوب المعلم الفاهم القدير، موجهاً كلامه إلى الجميع:

ـ إنما جعل الإمام ليؤتم به..

فإذا ركع الإمام، فعليك أن تركع.. أي أن تدخل الصلاة بتكبيرة الإحرام، ثم تكبر مرة ثانية وتركع. فإذا رفع رأسه، فعليك أن ترفع رأسك، ثم تتم معه الصلاة..

في تلك الفترة، شعر كأنه يعيش في مهرجان!! العالم من حوله جميل باهر رائع..

الكون بنظامه الدقيق العجيب الذي لاتمل العين من النظر إلى جماله المتجدد، وروعته وإيحاءاته ومناجاته وهمساته.

الشمس بضيائها الجاهر.

والقمر بنوره الساحر.

والليل بنجومه التي تهمس بكلام خفي يشي بعظمة خالقها!

الحياة بدت له غير الحياة التي كان يحياها.

كل شيء ينطق بعظمة الله خالق الكون ومبدعه.

كل شيء.. كل شيء..

حتى أنسام الفجر الندية..

حتى ابتهالات العندليب الشجية . .
حتى ابتسامات الزهور الرضية . .
حياة كلها فرح وود وأنس وابتسام!
ومضت شهور . .
وشهور . .
وهو يزيد ولا ينقص .
وهو يحلق في آفاق عالية من العلم والمعرفة والقرب من الله تعالى . . يحلق بروحه وقلبه في رياض نضرة وحدائق غناء!
ومضت سنة . . وبعض السنة، وهو يتقلب في تلك الجنان الوارفة، ذات الرحمة الفائضة . . وهو يتجه بكل قلبه إلى الله يطلب رضاه .
ولكن . .
فجأة . .
وبدون مقدمات . .
شعر بشيء غريب يغزو نفسه وقلبه!!
يدٌ آثمة ملوثة شوهاء قبيحة تحاول زعزعته!!
شيء في أعماقه . . في قلبه . .
شيء أهون منه سياط الجلادين وتعذيب الظالمين!!
قبضة آثمة قبيحة تمسك بشجرة الإيمان من أصلها، فتهزها بقوة تحاول اقتلاعها!!
كلمات كلها كفر وفسوق ومروق ومعصية . . تقذف في قلبه!!
خواطر قذرة . .
تصورات قبيحة . .

إلقاءات ساقطة . . أقل ما فيها يستحق الخلود في نار الجحيم!
بل السقوط من السماء إلى الأرض . .
بل النار . .
بل العذاب . .
بل الموت . .
والموت مهما كان شكله ونوعه . . أهون وأهون ألف مرة منها . . !
يا رب!!
يا رب!!
كانت الخواطر القبيحة الكريهة تزداد .
وإلقاءات الكفر والمعصية تغزو قلبه وتهز شجرة الإيمان بقوة وقسوة!، فتحرمه لذة الصلاة الهادئة المطمئنة!
كان يحاول دفعها بكل ما يستطيع من جهد . . فلا تزداد إلا عنفاً وقسوةً وضراوة!!
كيف يداوي ما به؟
أي طبيب حاذق يستطيع أن يصف علاجاً لحالته؟!
وتمنى لو استطاع أن يرى الرجل الذي أرشده إلى الصلاة . . كيف يستطيع الوصول إليه؟
وذهب إلى أمين المكتبة، فسأله عنه . .
ـ إنه يتردد أحياناً . .
ـ متى؟
ـ عندما يحتاج إلى كتاب نادر .
انقلب ذلك الهدوء الذي كان يعيشه . .

تلك الجنة الوارفة الظلال ذات الروح والريحان . .
ذلك النبع الرائق الذي كان يغرف من مائه العذب . .
ذلك المرجان . .
مهرجان الأنس والجمال . .
كل ذلك قد تغير ! !
انقلب إلى نار تلتهب في أحشائه .
إلى سياط تلذع كل موضع من جسده .
إلى يد شوهاء قبيحة تمسك بشجرة الإيمان وتهزها بعنف تريد اجتثاثها من أصولها ! !
لو ألقي من السماء إلى الأرض . .
لو هوت به الريح . .
لو مزق قطعاً قطعاً . لكان أهون عليه !
يا رب . .
يا رب . .
أنت قلت وقولك الحق : ادعوني أستجب لكم .
كان يقرأ أن رجلاً من الصالحين . . من العلماء . . كان يذهب إلى المساجد الخربة ، فيسجد لله . يمرغ وجهه بالتراب ويدعو :
ـ اللهم يا معلم إبراهيم علمني . . يا مفهم إبراهيم فهمني .
وراح يستجير بالله تعالى . . يصرخ بكل قلبه في قلبه :
ـ يا منقذ إبراهيم من النار أنقذني . .
ـ يا منجي موسى من الغرق نجني . .
أخذ يشعر بأن جميع المصلين أفضل منه . .

بل أي أحد من الناس . .
حتى الفاسق . .
حتى الفاجر . .
أفضل وأفضل منه بكثير ! !
لمن يشكو . . ؟
لمن يبث أحزانه . . . ؟
لمن يبث همومه . . ؟
من يستطيع أن يداوي جراحه التي تنزف من الداخل؟
وفي ليلة . .

كانت السماء ترتدي حلة بيضاء نقية رقيقة رائعة . . والقمر يبدو ضاحكاً فرحاً مرحاً يداعب الغمام بخفة ومهارة . والأرض تنتظر بلهفة قطرات من المطر تبلل بها قلبها الظامئ!

في تلك الليلة ذهب إلى جامع الإمام أبي حنيفة لأداء صلاة العشاء . . كانت صلاة الجماعة قد فاتته، ولم يبق في المسجد غير عدد قليل كانوا يؤدون سنة العشاء وصلاة الوتر فرادى . ولكنه شاهد في الناحية الخافتة من الضياء، في الجانب الأيمن من المنبر، شاهد ثلاثة رجال يؤمهم شاب في مقتبل العمر، يؤدون صلاة العشاء جماعة . . فأسرع يلتحق بهم . .

كانت قراءة الشاب هادئة خاشعة ندية، تتناسب والسكينة التي تعم المسجد . في نبرات صوته رعشة تهتز لها القلوب . .

كان يقرأ وكأنه قد غاب عن الدنيا، وحلق عالياً عالياً . . مع الملائكة في الملأ الأعلى!

وقف إسماعيل خلف الإمام، وراح ينصت مأخوذاً إلى كل كلمة من القرآن الكريم. وشنت الخواطر الظالمة هجمة على قلبه المكدود الذي راح يقاوم ويدافع بكل ما بقي لديه من قوة وعزم وثبات!

وكان الإمام الشاب، يقف عند كل آية، وقد يعيدها ويرددها أكثر من مرة..

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

وراح الإمام بصوته الهادىء الخاشع الحزين المرتعش يرددها:

﴿... مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾.

وشعر إسماعيل كأنه يقف مع المجرمين.

بكل الخواطر السيئة الظالمة التي أثقلته.

مع المجرمين..

في محكمة لا يتطرق إليها زيف ولا غش ولا خداع ولا تضليل!!

لا..

لا شيء من خداع الدنيا وزيفها وتدليسها!!

ولا يظلم ربك أحداً!!

وانفجر إسماعيل بالبكاء.. لقد شعر كأنه يبكي بكل كيانه بكل مشاعره.. بكل نبضة من نبضات قلبه الثابت في وجه الأعاصير الهوجاء!

ومضت فترة قبل أن تهدأ نفسه..

وسلم الإمام . .

ولم ينتبه إلى الصف الطويل من المصلين الذي انتظم إلى جانبه .

ونهض المصلون يريدون الخروج من الحرم . وراح الخادم يطفى المصابيح يستعجلهم للخروج . فلا أشق على خدم المساجد من بقاء المصلين لحظات قليلة بعد الصلاة المكتوبة ! !

وفي الساحة المكشوفة من الجامع . .

التقى وجهاً لوجه مع الأستاذ ! !

مع الرجل الذي رآه في مكتبة المجمع العلمي . .

فسلم عليه . . وصافحه . .

وكان الرجل قد سمع بكاءه . .

فسأله عما به . .

ـ إنني في أسوأ حال .

إنني أعاني من بركان أسود يلتهب في داخلي .

خواطر دنيئة قبيحة قذرة كافرة . . تقذف في صدري .

هجمة سوداء شوهاء ظالمة تريد أن تجتث شجرة الإيمان من قلبي .

فتبسم الرجل . .

وقال بلهجة الطبيب الحاذق الواثق المطمئن :

ـ ذاك محض الإيمان . .

وفغر إسماعيل فاه دهشة ! !

وأراد أن يتكلم . .

ولكن الأستاذ مضى يقول ، وابتسامة مشرقة نيرة تطوق فمه :

ـ إن الشيطان قد يئس منك ، فلم يستطع جرك إلى حظيرته . . إلى ما

كنت عليه قبل أن تصلي. يئس من جرك إلى الكفر والمعصية.. يئس من إشغالك بما لا ينفعك.. فلجأ إلى هذه الطريقة الخبيثة!!

أخذ يلقي في قلبك ما يجعلك تظن أنه منك وليس منك..

لكي تترك الصلاة..

لكي تسير مع التيار البعيد عن الله!

إن الشيطان كاللص..

إنه لا يسطو إلا على البيوت العامرة!

أما البيوت الخربة، فلا يلتفت إليها..

ولا يشغل نفسه بها!

وأنت تحمل كنزاً ثميناً نفيساً.. غالياً.. الإيمان!!

أعظم ما يتمناه الناس في الآخرة!

فلا تلتفت إليه..

ولا تشغل نفسك بإلقاءاته الخبيثة.

فإنه كالكلب..

إذا لاحيته.. إزداد إصراراً وعناداً ونباحاً..

أما إذا تركته.. فلم تلتفت إليه..

كف عنك. وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة والخذلان!! ردد كثيراً:

(رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين).

كانت الغيوم الخفيفة الشفيفة البيضاء قد غطتها غيوم أكثف منها، راحت ترسل بكل لطف وراحة نثاً خفيفاً سمحاً..

وتنفس إسماعيل ملء صدره..

وشعر كأن دواءً دافئاً حياً سرى في كيانه فدفع الأوضار والأقذار وألقاها بعيداً عن قلبه . . !

الحمد لله . .

يا ربي لك الحمد عدد خلقك ورضىٰ نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك .

كان يريد زيارة صديقه عبداللطيف أبي سعد، في مجلة السفينة، خلف معمل صالح أفندي . . ولكنه وجد نفسه، دون أن يدري، يسير على السدة المحاذية لدجلة . . على «الكورنيش» في جو ساكن ساجد . .

النهر الهادىء الهامس عن يمينه . .

والبيوت الساكنة الناعسة عن شماله . .

والقمر يحاول بلطف أن يجد فجوة يطل منها عليه . .

والنث لم ينقطع . .

وأغنية يهمس بها مذياع من أحد البيوت القريبة : «ما أحلى الرجعة بكير» .

بل ما أحلى العودة إلى الله . .

إلى الإيمان . .

إلى الراحة والاطمئنان . .

إلى الروح والريحان ! !

ومنذ تلك الليلة، بدأت الحملة الشوهاء على قلبه تخف، وراحت جيوش البغي تتراجع . . فانزاحت الغيوم السوداء عن سمائه، وارتفع القمر منيراً ساطعاً فرحاً في نفسه . . وعاد يعيش في مهرجان . . أجمل

وأعظم وأفخم مما كان يعيش من قبل!! وتمثل حقيقة قول ذلك العارف «الجنيد البغدادي»:

ـ إننا نعيش في سعادة لو علمها ملوك الأرض لقاتلونا عليها.

في تلك الفترة، قامت في نفسه رغبة قوية ملحة في أداء فريضة الحج. كان قد التقى بالسيد أحمد رمضان صاحب محل لكي الملابس قرب مدرسة التربية الإسلامية في الكرخ، وبعد حديث سأله إسماعيل:

ـ هل تصلي؟

فأجابه باعتزاز:

ـ نعم.. وقد ذهبت العام الماضي إلى الحج.

ثم أضاف ينصحه:

ـ إذا أردت إن تذهب إلى الحج فاذهب وأنت في عز شبابك.. فإن أعمال الحج كثيرة ومتعبة!

وازداد رغبة ولهفة وشوقاً إلى الحج، عندما التقى بصديقه أحمد عبدالكريم محمود، في مقهى إبراهيم عرب في الكرنتينة. كان هذا كافراً كفراً قبيحاً.. لا يؤمن بإلٰه ولا رب ولا دين ولا نبي مرسل ولا كتاب منزل!! كان قد أخذ بآراء ونظريات وأفكار أئمة الكفر دون تحكيم عقل أو علم أو منطق!!

كان ذلك في ليلة النصف الثاني من رمضان.. كان ماراً بسرعة أمام مقهى إبراهيم عرب، عندما سمع أحمد يناديه. كان جالساً على أريكة على الشارع العام، فأسرع إليه، وسلم عليه:

ـ كنت أظن أنك لم تعد من أمريكا بعد.

فضحك أحمد ضحكة متقطعة ساخرة، وقال وهو يحرك يده اليمنى

بصورة دائرية :

ـ إن معلوماتك قديمة .

ثم أضاف وهو يدعوه إلى الجلوس :

ـ اجلس . . إلى أين أنت ذاهب . . اجلس .

فجلس إلى جانبه وسأله :

ـ أين كنت إذن؟

ـ ذهبت إلى أمريكا وألمانيا وفرنسا، وزرت أسبانيا ثلاث مرات .

وكنت أرغب في الذهاب إلى اليابان .

ـ فأنت رأيت نصف العالم .

ـ نعم .

ـ وتعلمت أربع لغات .

ـ أنا أجيد الانكليزية قبل أن أسافر إلى أمريكا .

ـ هل كانت آخر سفرة لك إلى أسبانيا؟

ـ لا . . كانت إلى السعودية .

فقهقه إسماعيل ضاحكاً؟!

ـ أنت تذهب إلى السعودية .

ـ نعم .

ـ ذهبت معلماً .

ـ نعم .

ـ هناك يفرضون على المعلمين المسلمين الصلاة . . فكيف استطعت أن تتخلص؟

ـ كنت أصلي .

ـ بلا وضوء؟

ـ لا تجوز الصلاة بلا وضوء.

هتف إسماعيل مستغرباً ومندهشاً:

ـ أنت تصلي؟

ـ نعم.

ـ أخشى أن تقول لي أنك تبت؟

ـ نعم.

ـ أنت تتوب؟

ـ نعم.

ـ أنت؟!!

فتبسم أحمد.. وكان قصيراً نحيفاً أسمر، بأنف صغير ووجه لطيف وابتسامة ساخرة لا تفارقه:

ـ أنا نفسي لم أكن أصدق لو قال لي أحد يوماً أنك ستتوب.. ولكن رحمة الله أنقذتني مما كنت فيه.

الحمد لله.

ـ كيف حدث ذلك؟!

وراح الأستاذ أحمد عبدالكريم محمود يتحدث، بوجهه الأسمر الصغير، وشعره القصير، بأسلوبه الجذاب، بإشاراته بيده التي يرفعها بين لحظة وأخرى إلى أنفه الصغير. وإسماعيل ينظر إليه متعجباً.. مندهشاً.. مردداً مع نفسه سبحان الله.

سبحان مقلب القلوب من حال إلى حال!!

ـ بعد مجيئي من أسبانيا بأقل من سنة، التقيت بأبي علي، حسين ابن

نورية الخستة (المريضة). . الطويل الأبيض ذي العيون الصفر. .

ـ الذي كان معك في الاحتياط.

ـ نعم.

ـ عرفته.

ـ قال لي: ما رأيك في أن نقضي الصيف في الإسكندرية. نستأجر شقة لمدة شهر واحد. . نفسق ونفجر فيها!؟

راقتني الفكرة، ورجوت أن أتخلص من الجو الحار الذي يداهم بغداد في الصيف، وأن أزور قطراً عربياً بعد أن زرت عدداً من الأقطار الغربية. حصلت على تأشيرة السفر إلى مصر، وقطعت تذكرة للسفر إلى القاهرة. وعندما خرجت من مكتب الحجز في السعدون، التقيت بالسيد عدنان عبدالمجيد خريج كلية الشريعة. .

فسألني:

ـ هل ستسافر إلى السعودية؟

قلت:

ـ لا . . بل إلى مصر.

فقال، وهو يحاول أن ينهي الحديث لأنه كان مستعجلاً:

ـ السعودية تطلب مدرسين. . وأنت خريج كلية الآداب وتستطيع أن تقدم.

ثم تركني ومضىٰ مسرعاً.

فكرت في كلمات عدنان. .

لم لا أقدم. .

أقضي سنة أو سنتين، أجمع فيهما مبلغاً محترماً أسافر به إلى

النصف الثاني من الكرة الأرضية. . إلى أندنوسيا إلى الصين. . إلى الفلبين. . إلى كوريا. . إلى اليابان.

وعرضت الفكرة على أصدقائي الذين كنت ألتقي معهم في هذا المقهى. فأيدوا الفكرة. . وشجعوني. . ولكن أبا علي صرخ قائلاً:

ـ والإسكندرية؟

قلت:

ـ سأقدم الطلب غداً، ثم نسافر إلى الإسكندرية، وعندما نعود سأرى إذا كان الطلب قد أقبل أم لا.

وفي اليوم التالي قدمت الطلب إلى السفارة السعودية في بغداد، فاستقبلني هناك، شاب طويل نحيف أسمر، يتكلم اللهجة العراقية بطلاقة. . وأكد لي قائلاً:

ـ اعتبر طلبك مقبولاً.

سألته:

ـ هل أراجع بعد شهر؟

فتبسم، وقال مؤكداً:

ـ اعتبر طلبك مقبولاً.

ثم أضاف:

ـ راجع بعد أسبوع.

وسافر أبو علي إلى القاهرة. . وظلَّ أحمد ينتظر النتيجة. وفي هذه الفترة قام في نفسه صراع خفي. . سيذهب إلى الأرض التي ظهرت فيها أعظم حركة في التاريخ. . أعظم دعوة نشرت لواءها على الدنيا. . دعوة عظيمة نظيفة دون كبر ولا ظلم ولا غرور!

وظهر اسمه في قائمة المقبولين، فحول التذكرة التي كان قد قطعها إلى القاهرة.. إلى جدة..

وبسرعة.. وبلا شعور.. احتدمت في نفسه معركة هائلة بين الكفر والإيمان!.. بين الزيغ والإسلام!.. وعندما حلقت به الطائرة من بغداد في طريقها إلى جدة، امتلأت نفسه بشيء يعجز اللسان عن وصفه..

شعر بشوق مبرح راح يتزايد كلما اقتربت من جدة.. شوق لزيارة الرسول العظيم ﷺ.

ونزل في جدة.

ووقف يتنسم عطر الأرض التي أخرجت منها خير أمة على كل التاريخ!!

لعل أحداً من ركاب الطائرة لم يشعر بعشر ما كان يشعر به!

ومن جدة، ركب سيارة إلى المدينة المنورة بنور صاحبها ﷺ.. المسافة أكثر من أربعمائة كيلومتر.. إنه يريد أن تقطع في ساعة.. في دقيقة.. في لحظة.. واللحظة كثير!!

لقد ألقى بكل الأدران التي أثقلته وكبلته وحجبت عنه النور العظيم.. ألقاها في مطار بغداد.

وجاء خفيفاً..

سريعاً..

تحمله أجنحة الحب والشوق واللهفة إلى الحبيب..

إلى أستاذ الإنسانية..

إلى معلم الناس الحق ودالهم على الخير..

إلى النبي لا كذب . .

إلى ابن عبدالمطلب ﷺ .

في مدينة الحبيب . . ألقى متاعة في أقرب فندق إلى المسجد النبوي . وهرع إليه . . كان قلبه يسبقه . . كانت روحه تحلق أمامه وهو يطير خلفها . .

وشعر بهزة عنيفة وهو يضع أول قدم على باب المسجد . .

وهجم عليه البكاء دفعة واحدة . .

وارتفع بقلبه الذي أغرقته الدموع . . إلى السماء . .

وهتف بكل جوارحه :

ـ يا رب . . يا رب . .

يا رب تبت إليك . .

يا رب جئتك تائباً فلا تردني خائباً!

لا . . إن الله لا يرد عبده . .

بل يستقبله . .

يرحب به . .

يفرح بتوبته . .

يلقي عليه من حلل كرمه وعفوه ومغفرته . . وحبه وحنانه!

يا الله . .

وارتفع صوت المؤذن . .

إنه بلال . .

لا . . إنه مؤذن النبي . .

إنه مؤذن المسجد النبوي .

وأقيمت الصلاة..

ووقف يصلي..

لقد نسي كيف يصلي..

ولكنه وقف مع الحشد الكبير من المصلين.. مع الصفوف المستقيمة المتراصة..

لعل المسجد لم يسع قلبه الذي طفح بالحب لله.. للنبي.. للإسلام..

ولكن رحمة الله وسعته!!

ومضت أيام كأنها أحلام.. وتعلم الصلاة.. وذهب إلى مكة لأداء العمرة. ومن ذي الحليفة انخلع من ثياب الدنيا ولبس ثياب الآخرة!

وطاف بالبيت سبع مرات..

وسعى بين الصفا والمروة سبع مرات..

ثم حلق شعر رأسه..

وراح يفكر في كل خطوة..

بل لا يفكر في أي خطوة..

فليس المجال مجال تفكير أو تعليل..

إنه يريد أن يعيش أجمل ما في هذه اللحظات وأسعدها وأحلاها!!

في هذا البيت طاف الناس من يوم رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل..

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

ومن يوم ارتفع صوت إبراهيم في الناس بالحج..

والوفود لا تنقطع..

والألوف يتدافعون..
لبيك اللهم لبيك..
وأقبل الناس على أقدامهم.. على خيولهم.. على بغالهم.!
في البر..
في البحر..
في الجو..
كلهم.. كلهم يهتفون بقلب واحد..
بلسان واحد..
بهدف واحد..
ـ لبيك اللهم لبيك.. لا شريك لك لبيك.
إنها الوحدة الكبرى..
إنه الهدف العظيم..
إنها الأمة الواحدة..
إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك.

كان الأستاذ أحمد يتحدث بلسان الرهبان والصالحين.. بلسان الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.

ولم ينتبه إسماعيل إلى العامل الذي وضع أمامه كأس الشاي على منضدة صغيرة وهو يقول:

ـ تفضل «عمي».

وكان العامل طويلاً نحيفاً حفيف الشارب حليق اللحية، يرتدي قميصاً أحمر وسروالاً ضيقاً أسمر، ويضع قبعة صغيرة من النوع الذي يستعمله الرياضيون في سباق الدراجات الهوائية على رأسه.

والتفت الأستاذ يسأل إسماعيل:

ـ أين تشتغل الآن؟

ـ لا أشتغل . . ولكني أفكر في البحث عن وظيفة.

ولكن الأستاذ أحمد لم يسمع الجواب، فقد مرّت سيارة مصلحة بسرعة صاروخية، وقد وقف الجابي قرب الباب وراح يضغط على الجرس كلما اقتربت من إحدى المحطات فتنطلق السيارة لا تلتفت إلى أحد من الناس الذين أضناهم الانتظار!!

وحرك أحمد يده بصورة دائرية. ثم أخذ نفساً طويلاً حزيناً، ورجع بظهره إلى الخلف. بينما راح إسماعيل يشرب الشاي ويفكر في العرض الشيق الممتع المؤمن الذي سمعه من الأستاذ أحمد!

قال الأستاذ أحمد بصوت خفيض:

ـ إنني أحاول أن أحفظ القرآن.

ـ هل بدأت بالجزء الأول؟

ـ بل بدأت بالجزء الأخير. . بقصار السور، لأنها تستعمل في الصلاة.

ـ كل القرآن يستعمل في الصلاة.

هز الأستاذ أحمد رأسه موافقاً، ثم قال:

ـ إن بعض السور تتفلت مني، كلما حفظتها أعود فأنساها. . هكذا الإنسان. . إذا تقدم به العمر قلَّ حفظه وكثر خلطه! . .

خير للمرء أن يستفيد من شبابه.

ثم نهض وهو يقول:

ـ هل نذهب؟

ثم أشار بيده إلى العامل، فأقبل سريعاً:

ـ نعم «عمي».

فناوله ربع دينار وهو يقول:

ـ هذا لك.

ـ أشكرك «عمي».

ثم ناوله درهماً:

ـ وهذا لصاحب المقهى.

وفي الطريق إلى باب المعظم.. قال الأستاذ أحمد:

ـ أريد أن أشتري شيئاً للسحور.

ثم أضاف وهو يضحك ضحكته الساخرة:

ـ لا يصوم أحد في البيت غيري.

لم تكن المسافة بعيدة بين مقهى إبراهيم عرب وباب المعظم، حيث تقف سيارات مصلحة نقل الركاب ذات الطابق الواحد، وذات الطابقين. وكانت طريقة الأستاذ أحمد أن يسير متأنياً، وأن يقف كلما أراد الحديث. وأمام الجانب الشرقي للمدرسة الغربية المتوسطة، المقابل لكلية الهندسة، وقف رجل قصير هزيل خائف يرتعد! كان شعر رأسه ولحيته وشاربه مهملاً، وقميصه ممزقاً، وسرواله متربا!!

وقف الرجل في الجانب المظلم من الشارع، ومد يده بخوف وتردد وراح يطلب الصدقة! وقف الأستاذ أحمد ينظر إليه، وأراد أن يسأله قبل أن يضع في يده درهماً:

ـ من أين أنت؟

جفل الرجل..

وتلفت يمنة ويسرة كأنه مطارد.. وقال:

ـ أنا.. لا.. أنا..

وأراد الأستاذ أحمد أن يساعده ويستحثه:

ـ هل أنت من مصر؟

فتراجع إلى الخلف مذعوراً، ورفع يديه كأنه يتقي ضربة، أو يخشى أن يرفع فيضرب بالأرض:

ـ لا.. لا.. لا والله.. لا والله.

وتعجب الأستاذ أحمد، والتفت إلى إسماعيل:

ـ إنه خائف.. لماذا يفعل هكذا؟

ـ لا.. لست خائفاً.. أرجوك.. لست خائفاً.. إنني.

قال الأستاذ أحمد بهمس:

ـ إنه مجنون.

ـ نعم أنا مجنون.. إنني فقير.. أرجوك.

مد الأستاذ أحمد يده بالدرهم وسأله:

ـ ما اسمك؟

فأطلق الرجل ساقيه للريح، واندفع في الشارع الجانبي المؤدي إلى شارع الإمام الأعظم وهو يردد:

ـ لماذا تسألني.. لماذا؟!

وقفنا لحظات لا ندري ما نقول.. ثم سرنا صامتين نفكر في شأن الرجل المرعوب، حتى وصلنا إلى منطقة وقوف سيارات المصلحة في باب المعظم. وهناك دخل الأستاذ أحمد مطعماً ليشتري طعاماً للسحور.. ولكنه قبل أن يدخل وقف لحظات، وكأنه وصل إلى

نتيجة:

ـ إنه من شعب مضطهد.. مهزوم!

ثم أضاف بعد أن أخذ نفساً محرقاً:

ـ هكذا يريد أعداء هذه الأمة أن نكون!

* * *

أسرع إسماعيل فقفز إلى سيارة المصلحة رقم عشرين بعد أن ودع الأستاذ أحمد، وانطلق الباص سريعاً.. لا يقف في منطقة، ولا يحمل أحداً، وقطع المسافة من باب المعظم إلى المأمون في عشر دقائق.. ولم يدر أين ألقاه الباص!!

ووقف يتلفت..

لقد أصابه الدوار..

إن بيته لا يبعد كثيراً عن بيت الأستاذ شاكر المفتي.. وهو قريب من بيت السيد فائق عبدالعزيز..

ولكن أين هو الآن؟

أين يقف؟

وقف في مكانه، وأغمض عينيه، ورفع يديه إلى رأسه كالذي يشكو من صداع حاد.. وبعد لحظات فتح عينيه.. ورفع رأسه إلى السماء. لم ير القمر بهذا الصفاء والنقاء من قبل.. لقد أضفى البدر على السماء حلة رائعة من نوره، فبدت زاهية فرحة ضاحكة.

واستطاع أن يرى على بعد مائة ذراع جامع المأمون!

عليه إذن أن يعود إلى الوراء ليصل إلى البيت!

وفي طريق عودته، راحت كلمة الأستاذ أحمد تطرق قلبه:

- إنني أحاول أن أحفظ القرآن.. خير للمرء أن يستفيد من شبابه!

أنا أيضاً لم أحفظ كثيراً..

سورة قليلة قصيرة من الجزء الأخير.. وآيات متفرقة..

كيف لو مت؟

ماذا سأقرأ في الآخرة؟

هل أقول رب ارجعون لعلي أحفظ القرآن؟!

سأبدأ من هذه الليلة..

سأحفظ القرآن، ومعاني القرآن.

ولكن لا..

سأذهب إلى الحج أولاً، وعندما أعود بعد عيد الأضحى أبدأ بحفظ القرآن!

ولكن من يضمن أن أعيش حتى أذهب إلى الحج؟!!

سأبدأ بحفظ القرآن..

وسأذهب إلى الحج إن شاء الله.

سأشرب من ماء زمزم..

أشرب للتقوى..

وأشرب للعلم..

وأشرب للعمل..

وزمزم لما شرب له!!

* * *

وذهب إلى الحج . .

في سيارة صغيرة بيضاء يقودها الحاج عبدالهادي السامرائي ومعه الأستاذ أحمد، والأستاذ طالب الشيخلي . .

ووقف على عرفات . . يهتف مع الحجيج :

ـ لبيك اللهم لبيك . .

وبعد المغرب . .

ومع نفرة الحجيج إلى مزدلفة . .

أقبلت من جهة البحر غيمة خفيفة سريعة ولهىٰ . . تحملها أجنحة الملائكة . .

تدفعها أنامل الحب والشوق إلى حجاج بيت الله .

فإنهم لن يعودوا إلى هذا المكان إلا بعد عام!

ووقفت فوق عرفة تودعهم . .

وتفجرت أشواقها . .

فتساقطت دموعها غزيرة حبيبة . . عطرة . .

وامتلأت عيون الحجاج بالدموع . .

دموع الحب . .

دموع التوبة . .

دموع الندم . .

دموع العودة إلى الله بقلوب تهتف بصوت يتجاوز عنان السماء . .

لبيك اللهم لبيك .

لبيك لا شريك لك لبيك . .

إن الحمد والنعمة لك والملك . .

لا شريك لك .

ولم يستطع الأستاذ طالب أن يسيطر على عواطفه، بعد أن طفحت كأسه، وتبددت مشاعره. . فهتف بكل قلبه. . وكل صوته:

ـ الله أكبر. . الله أكبر. .

وراح الحجاج يرددون وراءه:

ـ الله أكبر. . الله أكبر. .

ثم انقطع المطر. .

واندفع الحجاج نحو مزدلفة. .

وقبل أن يجتاز إسماعيل حدود عرفة. . شاهد كما شاهد غيره من الحجاج. . أن المطر لم يتجاوز حدود عرفة!!

يا معجزة الإسلام الخالدة!!

آلاف وآلاف الحجاج يسيرون على الأقدام يقطعون مسافة عشرة آلاف ذراع إلى مزدلفة. . ثم أقل منها إلى منى!!

الأطفال. .

والشبان. .

والشيوخ. .

والنساء. .

النساء اللاتي لا تستطيع الواحدة منهن أن تقطع في بلدها ألف ذراع سيراً على قدميها. . تقطع هنا أربعة عشر ألف ذراع وهي راضية. .

وهي فرحة. .

وهي سعيدة. .

وهي ترجو رحمة الله ومغفرته ورضوانه!

هذه البقعة الطاهرة أقبل إليها الناس من كل مكان.

من كل بلد . . من كل لون . . من كل جنس . .
من كل لبس . .
من كل لسان . .
بكل جنان . .
تهتف بكل حب ولهفة وشوق :
ـ لبيك اللهم لبيك .

* * *

وعاد الحاج إسماعيل . .
عاد يقرأ القرآن من جديد . .
كان يسمع ولا يسمع . .
وكان يقرأ ولا يقرأ . .
وكان يرى ولا يرى . .
صار يقرأ القرآن بتدبر، وصار يسمع فيعي ما يسمع، وصار ينظر فيرى حكمة الله وقدرته وعظيم صنعه في كل شيء!!
وتمنى لو يرى الناس ما يرى . .
لو يسمعون ما يسمع . .
لو يدركون ما يدرك . .
لو يقرأون القرآن كما يقرأ .
لو تفتحت نوافذ قلوبهم للسماء . . للضياء . .
لرحمة الله الندية . .
لعطاياه السنية . .
لو عادوا إلى الله . .

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١١ ـ القرَار...

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نظر الحاج إسماعيل إلى ساعته وقال:

ـ إنها الخامسة.. يجب أن أصلي العصر.

ثم نهض وراح يقيم الصلاة.. فلما انتهى منها وأراد أن يكبر، قال المدير:

ـ إنك لم تتيمم.

التفت إليه الحاج إسماعيل وأجابه:

ـ تيممت عندما صليت الظهر..

ثم أضاف:

ـ إنما ينتقض التيمم بما ينتقض به الوضوء.. مضافاً إليه وجود الماء واستطاعة الوصول إليه.

ثم رفع يديه متجهاً إلى القبلة:

ـ الله أكبر.

كان سبتي يدندن مع نفسه وقد حوَّل يده إلى مفتاح الطابق الأرضي وراح يضغط عليه بلطف:

ـ غنيت مرة الصبح.. للطير والبلبل...

كان السيد صبحي جالساً في الزاوية، أسيفاً حزيناً، وقد احمرت عيناه من كثرة البكاء!

ووقف السيد عبدالفتاح، وقد أغمض عينيه وراح يردد بهمس:

ـ عن خاطرك يا أرضنا.. لم يبق في قلبي صبر.. يا أرضنا.

وارح السيد خالد يفكر في أمه..

كيف ستعيش مع زوجته؟!

ستطردها!!

ستلقي بها إلى الشارع!

كان يصدق جميع الأكاذيب التي تلقيها زوجته..

أخوها زهير ليس أستاذاً في الجامعات الأمريكية ولا الروسية. إنه يشتغل عاملاً في محلات التاجر الدمشقي الحاج محمد خير موسى، في محلة الحريقة المجاورة لسوق الحميدية في دمشق!!

أما عماد. فإنه يتسكع في شوارع برلين الغربية.. لم يتعلم صنعة، ولم يستمر في عمل!! أما أمها التي تصر على أن باريس عاصمة أسبانيا وأنها زارتها أربع مرات!! فإنها لم تغادر بغداد طيلة حياتها ولم تحصل على جواز سفر!!

إذا كتب الله له النجاة..

إذا فك وثاقه..

سيعيد النظر في حياته..

سيتخذ قراراً قوياً حازماً في كل أمر..

آه..

سيعيد النظر في القرار..

لعل أفضل عمل يقدمه إلى الله تعالى، بعد التوبة وطلب المغفرة.. في آخر عهده بالدنيا.. وأول إقباله على الآخرة.. أن يصدر قراراً عادلاً لاحظ فيه للنفس ولا للهوى ولا للشيطان!!

لابد أن يواجه ربه بقلب سليم..

بعمل نقي..

بصفحة بيضاء!!

عندما انتهى الحاج إسماعيل من صلاته، بقي لحظات يذكر الله في سره. ثم التفت وقال:

ـ لابد أن نعيد النظر في القرار.

ـ نعم.

قالها الثلاثة بصوت.. واحد!!

جلس مدير الإدارة، ومدد رجليه، ووضع الحقيبة السوداء في حجره، ثم فتحها، وأخرج الملف الذي يحتوي على نتائج الاختبار والأسماء والقرار. وجلس السيد عبدالفتاح وهو يقول:

ـ هل نعيد النظر في صيغة القرار؟

ـ بل نعيد النظر في الأسماء.. أسماء المرشحين للتوظيف.

أيد المدير قائلاً:

ـ نعم.. نعيد جرد الأسماء.

وهز السيد صبحي رأسه مؤيداً.

قال الحاج إسماعيل:

ـ نضع أوراق الاختبار حسب تسلسل الدرجات. نبدأ بأعلى درجة، ثم الأدنى فالأدنى..

ثم ندون أسماء الأشخاص الذين أحرزوها حسب التسلسل السابق.

ثم نناقش كل اسم على ضوء المقابلة التي أجريناها لهم.

تناول السيد عبدالفتاح الملف من المدير، وفتحه وراح يخرج أوراق الاختبار، ويرتبها حسب الدرجات المدونة عليها. فلما انتهى منها، أمسكها كما يمسك أمين الصندوق النقود بيده، وراح ينظر إلى الدرجات ويقول:

ـ ثلاثة منهم أحرزوا ٩٨٪
خمسة أحرزوا ٩٣٪
البقية أحرزوا درجات متفاوتة بين الستين والتسعين بالمائة.
أربعة أحرزوا ٥٠٪.
قال المدير:
ـ أعط الأوراق إلى السيد صبحي، ليقرأ الأسماء واحداً بعد الآخر، وبعد المناقشة، والاتفاق تدون أنت على ورقة بيضاء أسماء الفائزين.
اعتدل السيد صبحي، ومد يده يتناول الأوراق، بينما أخرج السيد عبدالفتاح ورقة بيضاء من الملف وضعها فوقه، وأخرج قلماً.. وتأهب والقلم بيده، لكتابة الأسماء التي سيتم الاتفاق عليها.
ومضىٰ الأربعة يعيدون جرد الأسماء.. ويقوّمون كل متقدم للوظيفة، تقويماً جديداً بعيداً عن كل مؤثر غير الله، وابتغاء رضاه! ولم يفز من أصحاب التذاكر والتوصيات غير ثلاثة فقط، وسقط منهم أحد عشر كانوا قد احتلوا مركز الصدارة في القائمة السابقة!
وكان سبتي ما يزال واقفاً، ضاغطاً على مفتاح الطابق الأرضي بلطف، مدندناً مع نفسه ذلك المقطع من الشعر، وقد غير المقطع الأول منها:
ـ غنيت عند الفجر.. للطير والبلبل.
بدلاً من غنيت مرة الصبح للطير والبلبل.
وبعد توقيع المحضر الجديد.. أمسك السيد صبحي بالقائمة القديمة ومزقها وهو يقول:
ـ يا أم البلاوي.

ولم يشعر أي منهم، عندما تحرك المصعد هابطاً بهدوء إلى الطابق الأرضي..

ثم يفتح الباب!!

كان مدير الإدارة مشغولاً بإعادة الملف والأوراق إلى الحقيبة عندما خرج سبتي بصورة طبيعية وهو يصيح:

ـ تايه.. تايه..

رفع أعضاء اللجنة رؤوسهم ينظرون إلى الباب المفتوح.. ثم تحولت العيون تنظر في الوجوه..

وألجمتهم المفاجأة..

ولم يتمالك الحاج إسماعيل نفسه فخرَّ ساجداً وهو يردد:

ـ الحمد لله.. الحمد لله. الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى.

الحمد لله.

وحاول السيد صبحي أن ينهض، فلم يستطع الوقوف على قدميه..

كانت رجلاه تهتزان كالسعفة في يوم عاصف.

وطفرت الدموع من عينيه..

من الدهشة..

من الفرحة..

من المفاجأة!!

ـ الحمد لله..

وخرج الجميع وهم لا يصدقون..

وكان سبتي قد وجد الباب الخارجي مفتوحاً، فخرج يصيح بأعلى

صوته:

ـ تايه.

فأقبل عبود الحارس راكضاً، وعندما رأى أعضاء اللجنة ارتبك واضطرب.. و...:

ـ أستاذ.. اشتريت اشتريت شخاطة.. أردت أن أوقد المدفأة.

ـ أين تايه؟

ـ أستاذ.. أنت تعلم.. أنه في المستشفىٰ.

ـ في المستشفىٰ؟!

هتف الجميع بصوت واحد.

ـ أستاذ.. ضربته سيارة الليلة البارحة.. وضربت عمود الكهرباء.

كان فاقداً الوعي طيلة الليلة الماضية.

ثم نظر الحارس إلى السيد عبدالفتاح وسأله بهمس:

ـ أين كنتم؟

فأجابه بنفس الصوت الهامس الذي سأله به:

ـ كنا في الأسر!!

عندما خرجوا إلى الشارع، رفعوا رؤوسهم إلى السماء كانت الغيوم تتفرق بعد أن هطلت الأمطار بغزارة..

الأرض مبللة..

والمحلات على الجانبين أضاءت مصابيحها..

وثلاث فتيات معهن طفل صغير يحاولن العبور إلى الجانب الثاني من الشارع.

والسيارات يمرقن بسرعة فيتطاير الماء على الجانبين.. وبعض

المارة يسرعون السير يحاولون الوصول إلى منازلهم قبل حلول الظلام.

وارتفع من المسجد القريب صوت المؤذن لصلاة المغرب.. وقبل أن يتحركوا..

التفت إليهم الحاج إسماعيل وقال:

ـ إن غاية ما يتمناه المرء بعد الموت.. أن يعود إلى الدنيا فيصلي ركعتين.

وسكت لحظات.. ثم أضاف:

ـ وها نحن قد عدنا إلى الدنيا.. كتبت لنا حياة جديدة..

وهذا أذان المغرب.

لنبدأ صفحتنا بعمل يرضي الله تعالى.

سأل عبدالفتاح:

ـ هل يوجد مكان للوضوء؟

ـ نعم.

قال صبحي:

ـ سأصلي معكم.

قال سبتي:

ـ وأنا أيضاً.

وتردد مدير الإدارة.. فمشى خطوات.. ثم وقف.. ثم التفت وقال:

ـ إنها تنتظرني.

لكنه تغلب على تردده... فتقدم قائلاً:

ـ سأصلي معكم.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفـــهرس

الموضوع	الصفحة
١ ـ اللجنة	٣
٢ ـ فتاح الفال	١٩
٣ ـ صلاة العشاء	٤١
٤ ـ عن خاطرك.. يا أرضنا	٥١
٥ ـ سنوات الجفاف	٦١
٦ ـ بنت الخياط	٧٣
٧ ـ المدير	١٠٧
٨ ـ الندم	١٤٧
٩ ـ الفخ	١٥٥
١٠ ـ في طريق النور	١٨٣
١١ ـ القرار	٢٣١

مطابع الحميضي
تلفون: ٤٥٨١٠٠٠ - فاكس: ٤٥٩٢٢١٧

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

القرار

من إصداراتنا للمؤلف :

- فتاة الجزيرة (١-٤).
- حديث الشيخ.
- جبل التوبة.
- شهرزاد.
- القافلة.

دار الأرقم
E-mail : arkm@ayna.com
ردمك: ١ - ٢ - ٩٢٤٧ - ٩٩٦٠